

مطبوعات مجمع العلمي العراقي

الجامع الكبير

في

صناعة المنظوم من الكلام والمنثور

تأليف

ضياء الدين بن الاثير الجزري

١٤٠٠ هـ قام بتحقيقه والتعليق عليه

الدكتور مصطفى جواد و الدكتور جميل سعيد
١٤٠٩ هـ

مطبعة المجمع العلمي العراقي

١٩٥٦ م - ١٣٧٥ هـ



تصدير عصر نصر الله بن الأثير

كلُّ أديب هو نتيجة ثقافته وموهبته وبيئته وعصره ، ولاختلاف هذه المؤثرات الأربعة تختلف درجات الأدب وتختلف أحياناً ضروبه وأنواعه ، وعصر نصر الله بن الأثير هو النصف الثاني من القرن السادس من الهجرة ، والنصف الأول من القرن السابع ، وهذا العصر يتميز بالفتاوي الحربية بين الدول الإسلامية والامارات الفرنجية بالسيام المروقة بمستعمرات الصليبيين ، وإنتعاش الدولة العربية العباسية واستعادتها استقلالها منذ عهد الخليفة المتقي لأمر الله سنة ٥٤٧ هـ ونهوض دولة الأدب في حكم العرب ، فغروب الصليبية منذ نشوبها أخذت تلهب العواطف ، وتفيض القرائح ، وتحرق التسلوب ، وتهبج النفوس ، فأخذ النثر منها سيلاً مباشراً حماسياً راعماً ، وأخذ الشعر منها طريقةً حماسية لاذعة ، وكثرت الرسائل المستنقفة والأناشيد الحافزة وأقبل الناص على القصيدة بلبون داعية ، وحفظوا إلى المتنبئ بالنصر المؤزر .

وانتهاض الدولة العربية من كيوئها أقام للأدب سوقاً دائمة ، واستفاض القرائح ، وبحث جامعات كثيرة من الأدياء على خدمة دولة العرب ، بعد أن كانوا لا يصدقون بانتعاشها ، ويستعجزون التدر في انتياشها ، وألف جماعة من الأدياء كتباً في البلاغة والبيان .

وذكر نصر الله بن الأثير نفسه من المؤلفين في البلاغة من سبق عصره عصره ابن أفلح البغدادي قال : « ووقفت على كتاب يقال له « مقدمة ابن أفلح ^(١) البغدادي » وقد قصرها على

(١) هو جمال الملك أبو القاسم علي بن أفلح الخلي البغدادي الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٥٣٥ هـ في أشهر الأول ، كان ذا عقل وأدب وله شعر مليح ونثر جيد يلزم إلا أنه كان كثير الغفاه ، لقبه الشيخ جلال الملك ثم نقل عليه حاشيته مؤيد بن صدقة الزبيدي عليه ، ترجمه ابن الجوزي وذكره في المنظم ٥٢٤٣٩ و ١٠ : ٨٠ . والهاء الأصلاني في طريقة القصر « نسخة دار الكتب الوطنية وباريس ٣٣٢٦ »

تفصيل أقسام علم الفصاحة والبلاغة ، وللمراقبين بها عناية وهم واصفون لها ومكبون عليها ولما تأملتها وجدتها قصوراً لآل نحتها لأن غاية ما عند الرجل أن يقول : وأما الفصاحة فلها كقول النابغة مثلاً أو كقول الأعشى أو غيرهما . ثم يذكر شيئاً من الشعر أو أبياتاً ، وما بهذا تعرف حقيقة الفصاحة حتى إذا وردت في كلام عرفنا من حقيقتها الوجود فيه وكذلك يقول في غير الفصاحة ... »

وذكر منهم الكافي محمد بن الحسن بن حمدون البغدادي مؤلف التذكرة كما في « ص ١٥٦ ، ٢٢٢ » من اللؤلؤ السائر قال : « ورأيت ابن حمدون البغدادي صاحب التذكرة قد أورد هذين البيتين في كتابه ... » ثم قال : « ووجدت في كتاب التذكرة لابن حمدون البغدادي وكان مباشراً إليه عندهم بغضيلة ومعرفة لاسياً فن السكتاية فوجدت في كتابه ذلك باباً متصوفاً على ذكر السكتاية والتعريض ... » . فقدمت أن أطلع وكتاب التذكرة العظيم من كتب البلاغة والأدب إذ ذاك ، وقد ألف فيها بعد ذلك أبو العلي الخطاري الثوفي سنة « ٥٦٨ هـ » .
وبعد هذه الحفظة ظهرت براعة نصر الله بن الأثير في الترسيل والتأليف في البيان فألف كتاب « الجامع الكبير في صناعة التلخيص والنشر » الذي فتح ما تقدمه في الزمان من التأليف الخاصة بهذا الفن ثم أضاف على إعرابه « النثر السائر في أدب الكتاب والشاعر » وسارت بفضله الزكيان ، وعكف على درسه طلاب الأدب في مختلف البلدان ، ولما وصل إلى بغداد تصدى له عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد ، الدائمي فألف تداً له ، ولكنه لم يستطع الحظ من قيمته ففقد سائر كائنات السائر ، والبدر الباهر في فلك البلاغة والبيان . وصنشير إلى ذلك أيضاً في أثناء الكلام على سيرة نصر الله الأديبة .

== الورقة ٢٤ . « وابن الجوزي » للبغدادي في الورقة ٥٣ من نسخة دار الكتب المصرية . وابن خلكان ١٦ : ٢٤٩ ، ٣٩٦ ، ٤٠٨ . من حجة بلاد العجم ، وله ترجمة وذكر في الكامل في حياته سنة ١٧ هـ وسنة ٥٣٠ هـ وصحة الزيدان ٥ : ١٦٩ ، ٢٩٢ . وعبد القادر لأبي الفرج بن الموزي « ص ٣٠٨ » ويعيون الأبناء في حقايق الأشراف . ١٥ : ٢٦٤ . « + » وعناصر النول « ص ٣٦٠ » وتجزئة السيف « ص ٢٩٧ » والنجوم الزاهرة « ص ٢٦٤ » ونصرة القدر لعبد السكاتب « نسخة دار الكتب بباريس ٢١١ : ٩٢ ، ١١١ » والشمس الأول من الجزء الأول من خزنة العراق « ص ١٤٢ » .

ترجمة مؤلف الكتاب

هو ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن أبي السكرم محمد بن محمد بن عبد السكرم بن عبد الواحد الشيباني الجزري المعروف بأبن الأثير .

والجزري نسبة إلى « جزيرة ابن عمر » قال ياقوت الحموي : « جزيرة ابن عمر : بلدة فوق الوصل بينها ثلاثة أيام ولها رستاق ^(١) غصب واسع الطيرت ، وأحسب أن أول من عمرها الحسن بن عمر بن خطاب النخعي وكانت له حصنة بالجزيرة وذكر أن حُرابة سنة (٢٥٠) ^(٢) . وهذه الجزيرة تحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه الهلال ثم عمل هناك خندق أجرى فيه الماء ، ونصبت عليه رص ، فأحاط بها الماء من جميع جوانبها بهذا الخندق . وينسب إليها جماعة كثيرة منهم .. وبنو الأثير العلماء الأدياء وهم عبد الدين المبارك ^(٣) وضياء الدين نصر الله وعمر الدين أبو الحسن علي بنو محمد بن عبد السكرم الجزري ، كل منهم إمام . مات عبد الدين والآخرون قبل سنة ٦٢٦ » .

وقال ابن خلكان : « والجزيرة المذكورة أكثر الناس يقولون : جزيرة ابن عمر . ولا أدري من ابن عمر ؟ وقيل إنها منسوبة إلى يوسف بن عمر الثقفي أمير العراقيين ، وسبباني ذكره ابن شاه الله - تعالى - ورأيت في بعض التواريخ أنهم - جزيرة ابن عمر أوص وكادلي ، ولا أدري أيضاً من هما ؟ ثم رأيت تاريخ ابن السنوني في ترجمة أبي السعادات المبارك بن محمد ...

(١) الرستاق والزقاق : القرى ود يحيط بها من الأرضين .

(٢) في النسخة الأوربية والنسخة المصرية يسأها من معجم البلدان « وكانت له حصنة بالجزيرة وذكر حُرابة سنة ٢٥٠ » وهو تصحيف شائع في النسخة .

(٣) ترجمه ياقوت في معجم الأدياء « ج ٦ ص ٢٣٨ » ٢٤١ « طيبة مرفيوت ، ولم يذكره أحد علماً لأنه لم يسم من الأدياء ، ولا لذلك في أنه ترجم أدياء نصر الله وضاعت ترجمته من الجزء السابع .

أنها جزيرة أوس وكامل أبي عمر بن أوس الثنلبي والله أعلم » ، ثم أبي طرفة بالسواب في ذلك ، وهو أن رجلاً من أهل رقيد من أعمال اللوصل بناها وهو عبيد العزيز بن عمر ، فأضيفت اليه^(١) والجزيرة اليوم من بلاد تركية .

وقال جمال الدين أبو حامد محمد بن علي بن الصايوني في كتابه « نكتة إكمال السكال » في مشبه السب : « وذكر في باب الأثير : يفتح المعزة وكسر التاء للثقة ويدهاياه معجزة يائنين من تحبها وآخرها مهمة جماعة ، منهم الأخوان الفاضلان أبو السعادات المبارك وأبو الحسن علي أبا محمد بن عبيد الكريم الجزري وأعفل ذكر أخيها الوزير الفاضل أبي الفتح نصر الله^(٢) ... »

وقال زكي الدين عبد العظيم النذري : « الأثير : يفتح المعزة وكسر التاء للثقة وسكون الياء آخر الحروف ويدهاياه مهمة^(٣) . »

قال ياقوت الحموي : « والأثير هو أبوه محمد بن محمد بن عبد الكريم^(٤) . »
والأثير في اللغة : الخلبص والكرم ، وقد جاء في الأخبار أن روح بن زباج الجذامي كان يقرى الأضياف وكان مسامحاً لعبد الله بن مروان أثيراً عنده^(٥) . ومؤلفه « الأثير » قال أبو الفرج الاسفهاني في أخبار « فريدة » صاحبة الوائق بأنه « وكانت فريدة أثيرة عنده الخواص وحظية لربه جداً^(٦) . »

وإذا كان كل من الإخوة الثلاثة أبناء للأثير لزم أن يكون « الأثير » لقب أبيهم « محمد بن

(١) وفيات الأعيان في « ترجمة » علي بن محمد بن الأثير » ج ١ ص ٣٧٩ « من طبعة بلاد الشام .

(٢) نسخة النسخ المخطوط العراقي الصورة في « الأثير » .

(٣) « النكتة لوحيات الله » نسخة مكتبة البلدية بالإسكندرية « تحت الأرقام ١٩٨٢ » ج ٢ ص ١٣٢ .

(٤) معجم الأدباء » ج ٩ ص ٢٣٨ « من الطبعة المذكورة .

(٥) السكال المعرود » ج ٣ ص ٩٤ « طبعة المطبوع الأزهرية وقد سقطت آخلة في شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٥٦ إلى « كان منيراً ... أمياً » .

(٦) الأغاني » ج ٤ ص ١١٤ « طبعة دار الكتب المصرية .

محمد « وقد قاله باقوت ، فمتد من كان أثيراً ؟ يظهر لنا أنه كان أثيراً عند الوزير جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الاسفهانى اللقب بالجواد وزير عماد الدين زنكي بن أقيصر ملك الموصل في آخر عهده ، ووزير ابنه سيف الدين غازي الأول ابن زنكي وقطب الدين مودود ابن زنكي ، وقد توفي الجواد سنة ٥٥٩ هـ^(١) . استدللنا على ذلك بما ذكره ابن الأثير عز الدين في سيرة الجواد قال : « حكى لي والدي عنه قال : كثيراً ما كنت أرى جمال الدين إذا قدم إليه الطعام يأخذ منه ومن الخواري ويتركه في خبز بين يديه فكانت أنا ومن يراه تعلق أنه يحمله إلى أم ولده علي فاتفق أنه في بعض السنين جاء إلى الجزيرة مع قطب الدين وسكنت أنوكي ديوانها وحمل جاريته أم ولده إلى داري لتدخل الحمام فبقيت في الدار أياماً فبينما أنا عنده في الخيام وقد أكل الطعام فغل كما كان يفعل ثم تفرق الناس ، فمضت فقال : فمضت فلما خلا السكان قال لي : قد آثرتك اليوم على نفسي فاني في الخيام ما يمكنني أن أفعل ما كنت أفعله ، خذ هذا الخبز واحمله أنت في كوك في هذا اللنديل ، واثرك الحلاقة من رأسك ، وهد إلى بيتك فانا رأيت في طريقك فقيراً يقع في نفسك أنه مستحق فاقعد أنت بنفسك وأطعمه هذا الطعام . قال : ففعلت ذلك ، وكان مني جمع كثير ففرقتهم في الطريق لتسأل يروني أفعل ذلك ، وبقيت في غلاني ، فرأيت في موضع إنساناً أعشى وعنده أولاده وزوجته وهم من الفقر في حال شديد ، فقلت من داني اليهم وأخرجت الطعام وأطعمتهم أيام وقلت للرجل : تعجب غداً بكثرة إلى دار فلان — أعشى داري ولم أعرفه نفسي — فاني آخذ لك من صدقة جمال الدين شيئاً ، ثم ركبت إليه المعسر فلما رأيته قال : ما الذي فعلت في الذي قلت لك ؟ فأخذت أذكر شيئاً يتعلق بدولهم . فقال : ليس عن هذا أسألك ، إنما أسألك عن الطعام الذي سلطه اليك . فذكرت له الحال . ففرح ثم قال : بشي أنك لو قلت للرجل يجي ، إليك هو وأهله فتكسومهم وتعطيهم دنائير وتجهري لهم كل شهر دنائير . قال : فقلت له قد قلت للرجل حتى يجي . إلي ، فأزاد فرحاً . وفعلت بالرجل ما قال . ولم يزل يصل إليه رحمه حتى قبض^(٢) .

(١) الوفيات ج ٢ ص ١٨٦ من الطبعة المذكورة . والسكائل في حوادث سنة ٥٥٩ هـ .

(٢) السكائل في حوادث سنة ٥٥٩ هـ .

وهذه الحسابة تدل على أن الرجل كان أثيراً جداً عند جمال الدين الوزير الجواد وأنه تولى له ديوان جزيرة ابن عمر ، ويؤكد هذه الولاية ما قاله ابن الأثير أيضاً في حوادث سنة ٥٦٥ هـ : « حدثني والذي — رحمه الله — قال : كنت أتولى جزيرة ابن عمر قطب الدين كما عظم فلما كان قبل ^(١) موته يسير أنا أنا كتاب من الديوان بالوصل بأمرهم بمساحة جميع بساتين القيعية ، وهذه القيعية هي قرية تحاذي الجزيرة بينهما دجلة ولها بساتين كثيرة بعضها يسمح فؤخذ منه على كل جريب شيء معلوم وبعضها مطلق عن الجميع . قال : وكان لي فيها ملك كثير فكنت أقول : إن المساحة أن لا ينبر على الناس شيء ، وما أقول هذا لأجل ملكي فاني أسمح ملكي ، وإنما أريد أن يسدوم الدماء من الناس للدولة . فجاءني كتاب النائب يقول : لا بد من المساحة . فظهرت الأمر وكان القيعية قوم صالحون لي بهم أنس وبيتنا مودنا ، فجاءني الناس كاهم وأولئك معهم يطلبون الرجعة فأعلمتهم أنني راجعت وما أجبت إلى ذلك . فجاءني منهم رجلان أحرف صلاحهما وطلباً مني المأدوة والمطاطبة تازية . فقلت : فأمرنا على البسيطة ، ففرغنا الحال . فما مضى إلا عدة أيام وإذا قد جادني الرجلان فلما رأيتها ظننت أنها جادا بطلان المأدوة ، فمجيبت متعها وأخذت أعتذر لهما ، فقالا : ما جئنا إليك في هذا وإنما جئنا نمرؤك أن حاجتنا قضيت . فظننت أنها قد أرسلنا إلى الوصل من شفع لهما . فقلت : من الذي خاطب في هذا بالوصل ؟ فقالا : إن حاجتنا قد قضيت من السماء والمسكافة أهل القيعية . فظننت أن هذا مما قد حدثنا به نفوسها . ثم قلنا عني . فلم يمض عشرة أيام وإذا قد جانا كتاب من الوصل بأمرهم بإطلاق الساجين والمحبوسين والسكوس وأمرهم بالصدقة ويقال : إن السلطان — يعني قطب الدين — مريض على حالة شديدة ثم بعد يومين أو ثلاثة جادنا الكتاب بوقته ، فمجيبت قولها وأعتدته كرامة لها .

قال ابن الأثير : فصار والذي بعد ذلك يكثر إكرامها واحترامها ويزورها ^(٢) .

وبهذه القصة نعلم أن الأثير — والذي يبي الأثير كان حسن السيرة غنياً وأنه بقي إلى ما بعد

(١) توفي سنة ٥٦٥ هـ . (٢) السكالك في حوادث سنة ٥٦٥ هـ .

سنة ٥٦٥ هـ وهي سنة وفاة قطب الدين مودود بن زنكي ، ولم يذكر ابن الأثير للزورخ وفاة والده ، ولكنه ذكر وفاة أخيه عبد الدين البارك في حوادث سنة « ٦٠٦ هـ » قال : « وفيها في سلخ ذي الحجة توفي أخي عبد الدين أبو السعادات البارك بن محمد بن عبد الكريم الكاتب . مولده في أحد الريمين سنة أربع وأربعين [وخمسة] وكان عالماً في عدة علوم منها الفقه والأصولان والنحو والحديث واللغة وله تصانيف مشهورة في التفسير والحديث والنحو والحساب وغريب الحديث وله رسائل مدونة وكان كاتباً مقلداً يقرب به للتل ، ذا دين مزين وژوم طريق مستقيم — رحمه الله ورضي عنه — فاندكاه من محاسن الزمان . ولعل من يقف على ما ذكرته يتبني في قولي ومن عرفه من أهل عصرنا يعلم ألي مقصّر (١) » .

وبهم من خبر أوردته باقرت الطوسي أن « الأثير » كاتب حياً في بعض عهد نور الدين أرسلان شاه الأول ابن مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر « ٥٨٩ — ٦٠٧ هـ » (٢) . وبنت ذلك إن لم يكن في الطبر لصحيف .

وكانت ولادة ابنه نصر الله مؤلف هذا الكتاب في العشرين من شعبان سنة « ٥٥٨ هـ » (٣) بالجزيرة وبها نشأ ثم انتقل إلى الموصل مع والده فيرجب سنة « ٥٧٩ هـ » ودرس بها الأدب والنحو واللغة وعلم البيان ، وحفظ القرآن وكثيراً من الأحاديث النبوية ، واشتغل بالعلوم ، وتزوج قبل سنة « ٥٨٥ هـ » ، وقد عرفنا في التاريخ له من الولد شرف الدين أبا عبد الله محمد بن نصر الله ، وكانت ولادته في شهر رمضان سنة « ٥٨٥ هـ » وفاته في سنة « ٦٢٢ هـ » قبل وفاة أبيه . والظاهر أنه درس على أبيه وأتقن علم الأدب . وألف كتباً منها « غرر الصباح في أوصاف الاصطباح » وكتاب « الأنوار في نصت الفواكه والنار » (٤) وكتاب « روضة النديم » قال الصفي :

(١) السكندر في حوادث سنة « ٦٠٦ هـ » . (٢) معجم الأدياء . ٦ : ٢٢٩ .

(٣) بهم من السكندر أن أدياً عبداً كان بجزيرة ابن عمر سنة « ٥٧١ هـ » له كان بالموصل سنة « ٥٧٦ هـ » قبل كان الدولة لها خاصة ؟

(٤) قال الصلاح السعدي : هو عيني السطه .

« له اليد الطولى في الرسل والشعر ومن نظمته يصف الحر ... » (١) وقال ابن خلكان : رأيت له مجموعاً جمعه الملك الأشرف أحسن فيه وذكر فيه جملة من نظمته ونثره ورسائل أبيه (٢) .
والظاهر لنا أن نصر الله بن الأمير درس علوم الأدب على أساتذة أخويه ثم عليها ولا سيما البارك الكاتب الأديب المحدث الأصولي ، ولما كملت له آلات الكتابة وأدوات الخدمة قصد جنتاب الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب في شهر ربيع الأول سنة « ٥٨٧ » وتوصل إلى ذلك بالقاضي الفاضل عبد الرحيم البستاني ، فوصله الفاضل بخدمة الملك في جادى الآخرة من السنة المذكورة ، وهو شهر تكثر فيه الحوادث الجسام ، وقلمنا يخلو أمر ابتدئ به فيه من سوء خاتمة . وجعل صلاح الدين له معلوماً أي جارية مالية ، فأقام عنده إلى شوال من السنة فطلبه منه ابنه نور الدين علي القلب بالملك الأفضل ، فغلبه صلاح الدين بين الأقامة في خدمته والانتقال إلى ابنه المذكور ، وتكون الجارية المالية التي فررها له باقية على صلاح الدين ، فاختار نصر الله نور الدين ومضى إليه فاستورده وحسن حاله عنده .

ولما توفي صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩ واستقل ابنه الملك الأفضل نور الدين بمملكة دمشق استقل نصر الله بن الأمير بالوزارة وردت الأمور إليه ، وصار الاعتماد عليه في الأحوال (٣) ، وكان نصر الله جاهلاً بالسياسة ، قبل الخط من الكياسة ، طسّن الملك الأفضل إبعاد أمراء أبيه عنه وأكابر أصحابه ، وأن يستخدم أمراء غيرهم ، ففارقته جماعة منهم الأمير نظر الدين جهار كسي وقرس الدين ميمون القصري وشمس الدين مسفر الكبير وسيف الدين مسفر الشلوب وكانوا عظام الدولة وأهل القول السموع فيها ، وصاروا إلى أخيه الملك العزيز عثمان ابن صلاح الدين بالقاهرة وهو ملك مصر فأحسن لقاءهم وأكرمهم وجاد عليهم بمئات دنانير ، وولى نظر الدين أستاذية داره وفوض إليه أموره وجعل قارس الدين وشمس الدين على صيدما

(١) تاريخ الصفي على الدين نسخة مكتبة الأوقاف . مجلد برقم ١٢١٦ .

(٢) الوفيات ج ٢ ص ٢٩٠ . من طبعة بلاد الهند .

(٣) الوفيات ج ٢ ص ٢٨٨ . من الطبعة المذكورة والشوك لغرفة دول القوك ١ : ١١٥ .

وأعمالها وكان ذلك لها وزادها نابلس وأعمالها ، ولم يقابل ضياء الدين بن الأثير إحسان القاضي المناضل بالأحسان ، فان المناضل ترك دمشق أيضاً وعاف مملكة نور الدين الأفضل وطلق بالقاهرة فخرج للثغر العزيز الى لقائه وأجلّ قدومه إجلالاً ، وأكرمه إكراماً .

وكانت مدينة القدس مضافة لذلك الأفضل ، فخدمه ضياء الدين بن الأثير على أن يتخلى عنها لأخيه العزيز ملك مصر ، تنصلاً من النهوض بأعباء ولايتها ، لأنها كانت تحتاج حينئذ الى أموال ورجال لمداومة الفرنج عنها ، فكتب الأفضل الى أخيه العزيز بذلك أخذاً برأي الضياء ابن الأثير ، فسر العزيز بذلك وجهز عشرة آلاف دينار الى عز الدين جرديك النوري مغولي القدس لينقذها في معسكر القدس ، فخطب جرديك بها للثغر العزيز وقطع اسم الملك الأفضل . وخشي العزيز من أن ينقض الفرنج الهدنة التي عقدها معهم أيوه صلاح الدين ، فأرسل جنداً الى القدس احترازاً من الفرنج ، ثم بدا للأفضل أن يسترد ما وهب لأخيه وهو القدس ، ورجع عن ذلك التخلي ، فتغير العزيز من هذا ، وأخذ الأمراء في التحريض والتضريب بينها وحسبوا للعزيز الاستبداد بالثغر ، والقيام مقام أبيه ودفع أخيه الأكبر وهو للثغر الأفضل عن الملك ، فبلغ ذلك أذاه فساء .

وكانت نابلس وأعمالها قد وقف السلطان صلاح الدين عليها على مصالح القدس وبقيها على ابن الأمير علي بن أحمد المشغوب فشاركه فيه أحد الأمراء الأكراد فهدموا أيديهم الى الوقت وساءت سيرتهم ونهضوا من إنكار الملك العزيز عليهم فلهجوا الى الملك الأفضل ، فأفضل عليهم وسكن بهم ، فغادر الملك العزيز بذلك ، وكان من جملة الأسباب الداعية الى الاضطراب أن الفرنج تسلموا أقر جبيل من مستحفظيه يرباً ، وضمف للثغر الأفضل عن استخلاصه ، فقبل للعزيز : إن تواترت استنوتات الفرنج على البلاد فخرج العزيز بمسكوه من السلاح والاسدية والأكراد ، وبلغ خبره أخاه الأفضل فضاق صدره واجتمع مع من في خدمته من الأمراء بموضع يعرف برأس اللا ، وأراد أن يستعطف أميراً اسمه صارم الدين قايمز النجمي أحد أبناء الأمراء عند صلاح الدين وكان مقيماً في إصطاعه وكان بينه وبين الأفضل شقاق وعناد ، فأرسل

إليه الأفضل في ذلك فلم يحب واستوحش من الأفضل وخرج من إقطاعه ورجل إلى عسكر
 العزيز وأظهر العزيز أنه يريد قتال الفرنج وفي الباطن كان يريد الاستيلاء على دمشق وإتباعها
 من أخيه . ورأى الأفضل أن يكتب إلى أخيه بكل ما يجب من إغلاء كلشه والاجتماع عليه ،
 ويكون هو من القائمين بين يديه ، طلباً منه لتسكين الفتن ورغبة في ذهاب الإحن ، فأشير عليه
 بنهر الصواب قال للعزيزي : « منعه من ذلك وزره ابن الأثير وعدة من أصحابه وحسنوا له
 محاربة أخيه قال إليهم » . وقيل له : أنت السككبر ، وإليك التدبير ، جُدت وأجهدت ولا يعلم
 أصحابك بهذا الخود الذي داخلتك ، والجبن الذي نزلك ، ونحن بين يديك ، وكلنا عاقدون للخناصر
 عليك . فبعث الأفضل يستنجد معه العادل بالبلاد الجزرية وأخذ الظاهر بحلب والملك للتصور
 بحماة والأجد صاحب بعلبك والجهاد شيركوه بمصر .

ووصل في جمادى الآخرة من سنة (٥٩٠) هـ رسول الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين
 إلى الملك الأفضل ، ووصلت كتب جماعة من الملوك الأكارم بالإنجاد للظاهر للأفضل . وسير
 الأفضل إلى معه العادل وهو بخراسان والإمامان الجزيرة رسلاً يستنجد به ، فلما أبطأ عليه سبر
 إليه أميراً اسمه عز الدين عثمان الزنجيني على نجيب يسرع ويأتي به عن قريب ، وكانت كتب
 الملك العادل قد وصلت تحمل نبأ عزمه على نجدة الأفضل ومصراته .

ووصل العزيز في جيشه إلى ظاهر دمشق وجاء العادل في مسأكره نجدة للأفضل فنزل
 بمرج عنفرا ،^(١) من القنطرة وأرسل إليه العزيز يريد الاجتماع معه ، فاجتمعوا على ظهور أفراسها
 وتقاوضا فقال له العادل فيما قال :

« لا تخرب البيت - يعني البيت الأموي - ولا تدخل عليه الآفة ، والمعدود ورادنا - يعني
 الأفرنج - من كل جانب وقد أخذوا جيبلاً قارجع إلى مصر واحتفظ عهد أبيك ، وأيضاً فلا

(١) جاء في العمود الرابعة « ٦ : ١٩٦ » نسخة دار الكتب « مرجع عدوا » . وقال الصحراني
 للصحراني في الماشية « كذا في الأصل وفي ابن الأثير (بروج الرضاد) وقد نسا عن كتابي في السككبر أني
 تحت أبيه فلم توفى إليها » . لنسا : عدوا هو تصحيف « صفراء » قال ياقوت في معجم البلدان .
 « عنفرا ... وهي قرية بموتة دمشق من إقليم حوران معروفة وأهلها يذهب مرجع ... » .

تكمدر حرمه دمشق وتطعم فيها كل أحد^(١). وتحدث معه في الصالح وأن بنفسه الخفاق عن دمشق وكان قد اشتد الحساد وقطعت الأنهار ونبت القمار ، فوافق العزيز معه العادل على إفضي الخراج وتراجع إلى قرية داريا من قرى غوطة دمشق ونزل على الأتوج ، وأرسل الأمير نغر الدين جبار كس أسفاد القار ، وهو يومئذ أجل الأصهار الصلاحية إلى العادل فترروا الصالح على شروطة ، وعاد إلى العزيز فرحل العزيز ونزل مرج الصفر ، فحدث له مرض شديد وأرجف بؤته منه وأيس منه ثم أفرق وأبلى منها وأفاق ، وقيل إن العادل بعث إليه يقول : ارسل إلى مرج الصفر ، فرحل وهو مريض ، وكان قصد العادل أن يبعده عن دمشق . ووصل للوك التقدم ذكرهم في جنودهم نجدة الأفضل ، فقال لهم العادل : قد تقرر أن العزيز يرحل إلى مصر ، قل ابن تقي بردي : واشتد مرض العزيز فاحتاج إلى الصالحة ولولا الأرض ما صالح . وأمر العزيز بعمل نسخة التبريد أي المعاهدة وهي جامعة لمقارحات جميع اللوك وحسن مواد الخلاف ، وأن للوك الأجد بهر إسماعيل بن عز الدين فرحشاه الأيوبي صاحب بعلبك واللك الجراهد شيركوه الصغير صاحب حمص يسكونان مؤازرين لللك الأفضل ونائبين له ، وأن للوك التمدور صاحب حماة يسكون في حيز لللك الظاهر غازي صاحب حلب ومؤازرا له . وبعث كل من اللوك أميراً من أمراءه لإحضار الخلف والحجاب . فجمعوا يوم السبت الثاني عشر من رجب من السنة ٥٩٠ هـ المذكورة ، وجرت أمور آتت إلى الخلف على دخن ، وحلب العزيز إلى عمه أئب يزوجه إحدى بناته فزوجها ، وكتب العهد الأصهباني كتاب العقد في ثوب أطلس ، وقرئ بين يدي اللوك الظاهر وعقد العقد عنده .

وخرج اللوك للوديع الملك العزيز واحداً واحداً ، وأول من خرج إليه أخوه الملك الظاهر غازي والفتيا في أول شعبان برجع الدر وبات عنده ليلة وعاد بعد أن أهدى كل إلى أخيه هدية ، وخرج بعده معه العادل في حواصيه ثم أخوه اللوك الأفضل ، فقتلاه واعتنقا وبكيا ، وكان قد فرقه منذ أسع سنين ثم إن الأفضل نظم أبياتاً في استعطاف أخيه واستأنسه وبعث بها إليه ،

(١) قال هذا السلطان الذي كان ابن تقي بردي في النجوم الزاهرة ٩ : ١٢١ : بما ألهم به ابن الأثير اللوك العادل من سعيه في قتال البيت الأيوبي .

ورحل العزيز من مرج الصفر في ثالث شعبان يُريد مصر ، فلما كان ثالث عشره عمل الأفضل
لعمه وسائر الملوك دعوة عظيمة وودعتهم ، ثم رحلوا من القد إلى بلادهم إلا العادل فإنه أقام إلى
تاسع شهر رمضان ثم رحل إلى بلاده بالجزيرة .

وعم الأفضل بمكانية العزيز بما يؤكد أسباب الصلح فأما له من ذلك خواصه وأفروه بأخيه
ورموا جماعته من أمراءه بأنهم يسكتون العزيز ، فأحتو حش منهم وقتلوا ذلك ففرقوا عنه ،
فلأمر عز الدين سامة صاحب كوكب وعجلون ترك الأفضل والنصح بالعزيز بمصر فأكرمه
غاية الأكرام ، وأخذ يحرثه على الأفضل ويحثه على السير إلى دمشق والتراجع عنها ويقول له :
« إن الأفضل قد غلب على اختياره وحسبك عليه وزيره شياء الدين نصر الله بن الأثير
الجزري وقد أفسد أحوال دولته برأيه الفاسد وهو يجعل أخاك على مقاطعتك ويحسن له لغير
الخير ، فإن من شرها سقو الوداد وصحة النية — ولم يوجد ذلك ، فعنهم في الخير قد تحقق
وبرئت أنت من العهدة ، فقصد البلاد قنبا في يدك قبل أن يحصل في الدولة من الفساد
ما لا يمكن تلافيه ، إن الله يسألك عن الرعية وهذا الرجل — يعني الأفضل — قد غرق في
الهم وشربه واستولى عليه الجزري وابن المسيحي » .

وكان الأفضل لما انفصلت المسائر عن دمشق شرع ، على عادته ، بطيوطه ويأمر وتظلمهم
بلذاته واحتجج عن الرعية قسومه « تلك النوام » وقومس الأمر إلى وزيره شياء الدين
نصر الله ابن الأثير وحاجبه جمال الدين محاسن بن المسيحي فأفصدا الأحوال وكانا السبب في
زوال دولته .

وبينا كان الأمر على ذلك غرق الأفضل محسن الدين أيمن بن السكندر أحد أمراءه ووصل
إلى العزيز فساعد الأمير سامة على قصده ، ثم وصل إلى العزيز أيضاً القاضي عبي الدين أبو
حامد محمد بن عبد الله بن أبي عمرو فآخترمه وولاه قضاء الديار المصرية وضم إليه النظر في
الأوقاف ، وحرصه القاضي ^(١) أيضاً وقال له : أنت لا تسلم يوم القيامة — يعني من الحساب

(١) طه مصعب اليوم الزاهرة ١٦٥ : ١٦٢ . شرف الدين عبد الله بن أبي عمرو ، بدلالة إسناده
في فهرسته مع موارد اسمه ، والصحيح أنه ابنه لأن شرف الدين كان قد توفي سنة ٥٨٥ .

والعقاب - وبلغ الأفضل ما قال سامة وهي الدين ابن أبي عمرو بن العزير فأقطع عما كان عليه
وتاب ودم على تقريبه وعاشر العلماء والصالحين ، وشرع يكتب مصحفاً بخطه وليس الخشن من
التياب واتخذ لنفسه مسجداً يتخول فيه عبادة رأسه وواعظ على الصيام والنج في القشف حتى
صار بصوم النهار ويقوم الليل .

وأما العزير فإنه قطع خبر الفقيه السكالي الكردي من مصر ، فأفلسه السكالي عليه جماعته
وخرج إلى العرب بجمع ونهب الاسكندرية ، فسار إليه العسكر فلم يلقوه ، وفتح العزير أيضاً
خبر جماعة من الأمراء والعلماء ، فتركوه إلى دمشق والتجؤوا إلى الأفضل فأقطعهم إقطاعات .
وتجدد الخلاف بين العزير والأفضل . وفي سنة ٥٩١ هـ « عزم العزير على السير إلى دمشق
والاستيلاء عليها ، فاستشار الأفضل أصحابه فيما يجب أن يفعله ، فقدم من أشار عليه بمكاتبة أخيه
العزير واسترضائه . وأشار الوزير شهاب الدين نصر الله الأثير عليه بأن يقتصر بعمه الصلادل
ويستصم بقوته ويستلججه على أخيه . فأستى إليه الأفضل وخرج من دمشق في رابع عشر
جمادى الأولى وسار جريئة إلى عمه المادل فلقبه بسفيين ، فلما نزل الحلف الأفضل في السؤال
له أن يزل عنده بدمشق ليحيرة من أخيه العزير ، فأجابه وأزله بقلمه جدير ثم سار إلى دمشق
أول جمادى الآخرة فوصل إليها في تسعة . وكان قد دخل الأفضل حلب على البرية مستعصراً
أخيه الملك الظاهر غازياً ، فلقاه وحلف له على المساعدة . وقيل إنه لما اجتاز بحلب اتفق مع أخيه
الظاهر غازي وتحالفا ، ثم رحل منها إلى حماة فلقاه ابن عمه الملك المنصور محمد بن الظاهر وحلف
له على المساعدة ، ثم سار عنه إلى دمشق فدخلها في ثالث عشر جمادى الآخرة وبها المادل ،
فأنفضى إليه بأسراره وعلم المادل اختلال الأحوال الأفضل وسوء تدبيره وقبح سيرته فأخبر عنه
ونهاه فلم يلقه ، وأشار عليه بمنزل شهاب الدين ابن الأثير عن الوزارة وقال له : هذا يغرب بكتك .
فصار لا يلتفت إليه ، فحقق عليه ، ثم إلى المادل سأل الظاهر غازياً في شيء فلم يجبه إليه ، فغضب
لذلك المادل وانفرد عنهم .

وكان الملك الأفضل مع اشتغاله في الرأي مع عمه المادل يبالغ في إكرامه وإزاحة عنه

حتى ترك له سنجيقه وصار يركب في خدمته . وفاق صدر أخيه الطاهر غازي بيته الخصال ، وكان الطاهر قد تفر منه جماعة من اللوك والأحرار ، ومن هم في شاذله ، منهم صاحب حانة الكان للنصور ، وصاحب ياروق من الدين بن النقم ، فراسلا الكان العادل في الاعتصام به ، وكان من جامعهم بدر الدين دكرم بن بقاء الدولة بن ياروق صاحب « قل باشر » فاعتقله الطاهر هو وبنو عمه وطلب منه تسليم حصنه ، فشفع العادل فيهم وكفل بأن يكف أدامهم واستصحبهم الى دمشق فطلب منه الطاهر الوفاء بكتافاته فتمسك عليه ردهم ، ونجس له ردهم ، فغضب الطاهر لذلك وراسل العزيز يحثه على الاسراع في القدوم ، فأقبل العزيز وخيم بالقوار .

وشرع العادل في تدبير أمور الأفضل وكاتب الأمراء الأُسدية من أصحاب العزيز سراً يحثهم على تركه والانقطاع الى حزب الأفضل واستمالهم بوجدهم الأموال والاعطاعات الصلاحية ، وكان الأمراء الصالحون قد وقع بينهم وبين الأمراء الأُسديين تخاصم الصلاحية على الأُسدية ، وكان الكان العزيز قد قدم الصلاحية عماليك أبيه على الأُسدية عماليك عمه أسد الدين شيركوه وجواشيه الأكراد ، ثم دس العادل الأموال الى الأُسدية وكان مقدم الأُسدية وأمير أمراء الأكراد حسام الدين أبي الهيجاء السمين ، وكان العزيز قد عزله عن ولاية القدس ، فاجتمعت الأكراد اليه وراسل العادل الكان العزيز يخوفه من الأُسدية ، ويعرفه ما انطوت عليه قلوبهم من الغل إتماماً للحيلة ، فكانوا إذا اتيتهم عرفوا في وجهه القبر عليهم ، فرغبوا عنه وحسنوا للأكراد مواقفهم في الاعتصام عنه . ودارت الأكراد حول أبي الهيجاء السمين كما قد دنا ذكره وقالوا له : لا تأمن عليك من الناصرة . فزمو أمرهم ومجنوا رحيلهم ، فرحل أبو الهيجاء والهرابية والأُسدية عشية الاثنين رابع شوال من السنة ، ومعه « أوكيش » وقصدوا دمشق ولحقوا بالكان العادل وهم في لامة الحرب ، ففسر بينهم لائهم معظم الجيش ، فأصبح العزيز فلم ير في الخيام من الأُسدية أحداً ، وقيل : بل علم العزيز برحيلهم فابلى بالنصراتهم وقال « سوف نأمن أكرادهم » ولم يأمر أصحابه باتباعهم وردهم ، واتي في خواصه عقياً في تلك الليلة ثم رحل عائداً الى مصر ، بقاء رسول أبي الهيجاء السمين الى العادل يعلمه برحيل العزيز خائفاً ويسدعوه الى

القدوم ليخلصوا العزيز وبأخذوه ويتسلموا ملك الديار المصرية ، وكان الاسديّة يكرهون العادل وانما دعتهم الضرورة الى اتباعه . وانفق العادل مع ابن أخيه الأفضل على اشراق مصر من العزيز ، على أن يكون للعادل الثالث والأفضل الثقلان ، ورحلوا من دمشق في جنودهما وخرج معها تلك التصور صاحب حاة وعز الدين بن القدم وسابق الدين فكان من الهابة صاحب شيزر وانضم اليهم عز الدين جرديك النوري نائب القدس ، وأعيد أبو الهيجاء السمين الى نيابة القدس .

وأما ملك العزيز فانه سار على طريق اللجون والزملة وخاف من الاسديّة الذين بقوا بالقاهرة أن يفعلوا فعل إخوانهم فيمنعوه من دخول القاهرة ، وكان مقدمهم الأمير بها الدين قراقوش نائباً عنه في الديار المصرية فلم يتغير ، وأقام على الطاعة والصفاء واللودة ، ودخل العزيز القاهرة واستقر في سلطنة مصر ، ولما وصل العادل والأفضل ومن معها الى تل المجول خلق الأفضل على جميع الاسديّة ، وعلى الأكراد الافضلية وأعطاهم الصنوج المعروفة باسم الكسوسات وسادوا حتى نزلوا بليس ، وبها جموع من الصلاحية والعزيزية ومقدم الصلاحية عمر الدين جباركس ، والأمير حكيمري بن بعل الحديدي على طائفة الأكراد ، فهازلهم جيش العادل وجيش الأفضل ، واشتد الحصار على بليس حتى كانت تؤخذ وضاق العزيز بالقاهرة وفلت الأموال عنده . وكان محباً الى الرعية لما فيه من حسن السيرة وكثرة النكرم والرفق ، واحتاج الى استخدام الرجال فلم يجد مالا فيقتل له الاغنياء جملة أموالهم بقبيلها .

وتوقف الملك العادل عن القتال ولم ير اشراق مصر من يد العزيز صواباً ، وظهرت منه قرائن تدل على أنه لا يؤثر سلطنة الأفضل على سلطنة العزيز فأرسل الى العزيز يطلب منه أن يبعث القاضي الفاضل ، وكان الفاضل قد نثره عن ملابسة الدولة وغالطة أهلها واعتزل في داره لما رأى من اختلال الأحوال ، فأرسل اليه العزيز يسأله السعي في الأمر فأبى وامتنع ، فغضب اليه العزيز وأقسم عليه ، فخرج جيشه الى العادل ، فاحترمه العادل وأكرمه وتحدثت معه في الأمر وعاد الى العزيز وتحدثت معه فيه . فأرسل العزيز ابنه الصغيرين مع مملوك له رسالة طاعنة الى العادل مضمونها « البلاد بلادك وأنت السلطان ونحن رعيتك » ، لا تقاوتوا السلطين ولا تسقوا

دماءهم وقد أغفقت ولديّ يكونان تحت كفالة هي العادل ، وأنا أنزل لسكر من البلاد وأمضي
إلى القرب » . وكان ذلك يشهد من الأحرار ، ففرق العادل له وبسبب الماتمرون وقال العادل
متأثراً « معاذ الله ، وصل الأمر إلى هذا الحد ! » .

وكان العادل قد قرّر مع القاضي الفاضل رد خبر^(١) الأسدية والأكراد وإقطاعهم
وأمنلاكهم وأن يقيم العادل بمصر عند العزيز ليقرّر قواعد ملكة وأن يسهلح الأفضل والعزيز ،
وأن يبقى أبو الهيجاء على ولاية القدس ، ثم قال العادل للأفضل . « المصلحة أن تعفي إلى
أخيك العزيز وتصلحه ، ما عفرنا عند الله وعند الناس إذا فعلنا ما بين أخينا ما لا يليق ؟ » ففهم
الأفضل أن العادل ندم على عيته ورجع عنها ، وأنه اتفق مع العزيز على أخذ البلاد منه لسكرته لم
يسكنه إذ ذاك الكلام ومضى إلى أخيه العزيز فاصطلحا ، وخرج العزيز من القاهرة إلى بليس
فالتقاء مع العادل وأخوه الأفضل ووقع الصلح .

ثم دخل العزيز والعادل والأسدية إلى القاهرة يوم الخميس رابع ذي الحجة من السنة وأنزل
العزيز مع العادل في القصر وأخذ العادل في إصلاح أمور مصر والنظر في ضياعها ورباعها وأظهر
من عبة العزيز شيئاً زائداً ، وصار إليه الأمر والشعي والحكم والتصرف في سائر أمور الدولة
جليها وحقيرها .

وسلطن العادل ابن أخيه العزيز ومشي بين يديه بالناشبة وهي سرج من أديم غرور بالذهب
بغلتها الناطر مصنوعة كلها من الذهب تحمل بين يدي السلطان في الاحتفالات . ولو أراد العادل
مصر هذه المرة لأخذها وأمنّا كل قصده الإصلاح بين الإخوة . وشبه العادل أمور مملكة
مصر وغير الاقطاعات ووفر الارتفاعات أي الواردات وتقرر الأموال وقرب إلى العزيز عز الدين
سامة فصار صاحب سره وحاجبه .

ورحل الأفضل يريد الشام ومعه أبو الهيجاء السمين فوصل إليها في أول سنة ٥٩٢ هـ وصار

(١) في اليوم الرابعة ٦٤٥ : ٦٤٦ طبة القاهرة « رد خبر الأسدية » . وللصالح للمعاش
والرأب إذ ذاك « الميز » والمج « الأخيار » .

الساحل جميعه مع الأفضل وفي حكمه ، وازم هو العبادة وأقبل على الزهد ، وسارت أمور الدولة بأسرها مفعولة الى وزيره ضياء الدين بن الاثير فاختلست به الأحوال فاقه الاختلال وقبحت أفعاله وكثر شاكوه . ولم ينتفع بالتجارب .

ثم حدث اختلاف ثالث بين العزيز والأفضل وهو أنه لما عاد الأفضل الى دمشق ازداد وزيره ضياء الدين الجزري من الأفعال القبيحة كما ذكرنا وأذى الأكار من الدولة وبلى الناس منه بيلابا والأفضل في غفلة عن تلك القضايا ، ونظر منه الهاد الاسفها في فارغى الى معسر ، وكان الأفضل يقول منه ولا يخالفه ولا يبدى أحداً عليه فكتب قياز النجوى وأعيان الدولة الى العادل يشكونه ، فزسل العادل الى الأفضل يقول له : « ارفع يد هذا الأحمق السيئ التدبير ، لتقليل التوفيق » فلم يلتفت الى قول عمه ، فاتفق العادل وابن أخيه العزيز على السير الى الشام لازالة الوزير ضياء الدين بن الاثير من الوزارة وتدبير حكم الشام ووقع الرحيل من يركة الجب ثامن شهر ربيع الآخر من سنة ٥٩٢ بعد أن لم يسكن العزيز يريد السفر ، ولكن عمه أشار عليه بأن يوافقه على السير ورافقه فيه ، قرأه عين التدبير وكان معها جميع الاسدية والمالكيك .

ووصل العادل والعزيز الى الداروم^(١) وأمر العادل بإحراق حصنها فقسم بين الجاندارية والأمراء ، فشق على الناس إخراجها لما كان به من الرفق للمسافرين وانتهى للسكان الى دمشق . وكان لذلك الزاهر مجير الدين داود بن صلاح الدين قدم رسولاً من حلب الى أخيه العزيز من قبل أخيه الظاهر غازي لتسكين هذا الراجح الثائر ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر والقاضي بها ، الذين يوسف ابن شداد ثم انصرفوا من معسر يا طلبوا فروا بدمشق فأعطوا لذلك الأفضل بما أرم من الأمر ، فضايق صدره وعال فكره واستشار أصحابه فأشار عليه شيوخ الدولة بأن يستقبل عمه وأعلمه ويسلم لها حكمها وأشار عليه وزيره ضياء الدين بن الاثير وأصحابه بالتصميم على المخالفة ، وترك الجماعة واللائفة ، ثم دخل عليه أخوه لذلك الظاهر خضر ، فشججه وصبره وتولى أسباب الدفاع ،

(١) في معجم البلدان أن الداروم قلعة بعد غرة بغداد الى مصر خربها صلاح الدين لما ملك الساحل سنة ٥٨٤ والمير يدل على أنها حربت ثم أعرب حصنها .

ثم حلفوا الأمراء والقديسين ، وأعدوا مواضع الدفوع ونبوا رجالاً حوالي دمشق يتناوبون حراستها
بكثرة وأسبلا ، وتفرق الأمراء على الأسوار والأبراج وجاءت رسل الملك الظاهر لاختيار مظاهره
الأفضل ، ولذهب الأفضل فلك الدين أخا العادل إليه منه رسولا فوصل فلك الدين إلى المعسكر
العزبي بالداروم وغزة فلم يلق عند العزيز غير الآباء والامتناع : فبقي فلك الدين هناك أياماً
لاصلاح ذات البين ، ولأنك أنهم اشترطوا على الأفضل شروطاً وأعادوا الرسول إلى صاحبه ،
وأقاموا ينتظرون الجواب ، فجاءهم من أبياتهم بامتناع الأفضل من الإجابة إلى ما اشترطوا .

ولما رأى الأكابر وشيوخ الدولة أن الأفضل لا يسمع من رأيهم وأنه عازم على المخاربة ولا
يعدل عن رأي وزيره ضياء الدين بن الأثير مع ما قد عرفه وألفه من شؤم تديره شرهوا في
إصلاح أمورهم في الباطن ، فراسلوا العادل والعزيز ، واستظهروا كل نفسه ، واتفق العادل مع
عز الدين بن الحمصي على فتح الباب الشرقي من دمشق وكان مسلماً إليه ، فلما كان يوم الأربعاء
السادس والعشرين من رجب ركب العادل والعزيز وجاءا إلى الباب الشرقي ففتحه ابن الحمصي
فدخلوا دمشق من غير قتال وقال العماد الاصفهاني الكتاب : « فكتب الأولياء من البلد إلى العزيز
والعادل بأنهاز الفرسة فركبوا ونأهبوا يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب فاصدمهم عن
قصد البلد أحد ، وما كان في طريقهم إلا فلك الظاهر ومعه عسكر حلب فقاتل على طرف قتال
الجماعة ، وما عندهم علم بما دبروه من الخامرة ، فجادوا ولم يسكتوا ، ووصل العزيز إلى الميدان
الأخضر ووصل العادل إلى باب توما وكان الأمير الأمين به قد استنهضه إليه بكتيبة ، ففتحه له
فدخل العادل وأصحابه من باب توما والباب الشرقي ، ولبث العادل في الدار الاسدية ، ودخل
العزيز من باب الفرج وبث في دار صفة المسادية » وقال ابن تزي يردى : « فمزل العزيز دار
عمته ست الشام وتزل العادل دار العتيقي » وتزل الأفضل إليها وها بدار العتيقي فدخل عليها
وبكى بكاءً شديداً ، فأمره العزيز بالاعتقال من دمشق إلى حمص ، فأخرج وزيره ضياء الدين
ابن الأثير بالليل في جملة الصناديق خوفاً عليه من القتل ، فأخذ ضياء الدين أموالاً غلبية
ومهرب إلى بلاده . وقال العماد الاصفهاني « وخرج الأفضل إلى العزيز وقلبه » ونجرح من

ثم زوال ملكه ما سبقه ، فلما ملك العزيز دمشق أقام بالميدان الأخضر الكبير الى أن انتقل الأفضل من القلعة بأهله وأصحابه ، وأخرج وزيره الجزري مخفياً في سنادقه ، إشفاقاً عليه من قتله وتخريبه ، وتحول الأفضل تلك الأيام الى مسجد خاتون وما يجاوره ، ومعه وزيره فهرب ليلاً الى بلاده وقد أذخر فيها أموال دمشق وأعمالها ثلاث سنين .

وقال القرظي : « فلما أخذ العادل والعزيز دمشق نزل الأفضل من القلعة اليها فاستعيا العادل منه . لانه (هو) الذي حمل العزيز على ذلك ليوطي ، نفسه ، كما يأتي ، وأمره أن يعود الى القلعة فلم يزل بها أربعة أيام حتى بعث اليه العزيز أيبك قطيس أمير جاندار وصارم الدين خطلج أستاذ الدار ، فأخرجاه وأخرجاه عياله وحياله أبيه وأزواله في مكان ، وأوفى ما كان عليه من دين وما لخدمته من الجوامك ، فبلغ ذلك ثقباً وعشرين ألف دينار ، فبيع بركة ^(١) وجملته وبهاذه وكتبه ومما يملكه وسائر ماله ، فلم يبق له عليه ، وقبض عليه أخوه ومعه لسوء حظه ، ثم بعث اليه معه العادل يأمره أن يسير الى صرخند فلم يجد عنده من يسير به بأهله حتى بعث اليه جمال الدين محاسن عشرة أوصوله الى صرخند ، وأخذت من ذلك الطاهر مفاقر الدين خضر « بصري » وأعطيت ذلك العادل ، وأمر الطاهر أن يسير الى حلب فلتحق بأخيه الطاهر . وفي هذه الحادثة يقول ابن حنبلان في ترجمة ذلك الأفضل علي بن صلاح الدين « وللافضل شاعر فني النسب أنه كتب الى الإمام الناصر يشكو من عمه العادل وأخيه العزيز لما أخذاه منه دمشق : مولاي إن أيا بكر وصاحبه ^(٢) ...

وهي أبيات وثقت عليه ووثق جوابها على الخليفة الناصر لدين الله ، قال أبو الظفر سبط ابن الجوزي : « وما يعزى اليه من الشعر أنه كتب الى الخليفة لا أخرج من دمشق واتفق عليه العادل والعزيز : مولاي إن أيا بكر وصاحبه .. وبلغني أنه كان ينكر هذا الشعر أنه له ^(٣) .

(١) ذلك : القناع الحاس من ثياب وقاش .

(٢) تراجم أبيات في الوفيات ١ : ٤٠٥ من طبعة بلاد العم .

(٣) الرامة : مختصر ج ٨ ص ٦٣٨ من طبعة جبر كاد التركي .

قال القرظي : ويقال إن العادل كان قد قرّر مع تلك الميز وهو بالقاهرة أن تلك الميز إذا غلب أخاه الأفضل على دمشق وأخذها منه أن يقيم بها ويعود العادل إلى مصر نائباً عن الميز ، فلما ملك الميز دمشق وأخرج أخاه الأفضل منها انكشفت مستورات مكايده معه فقدم على ما قرّره معه وبعث إلى أخيه الأفضل سرّاً يستنصر إليه ويقول له : لا تنزل عن ملك دمشق ، ففطن الأفضل هذا من أخيه خديعة وأعلم العادل به فقامت قيامته وكتب الميز وأخيه ، فأنكر أن يكون صدر منه هذا وحتى على أخيه الأفضل وأخرجه إلى سرخند على أقبح صورة . واختفى الوزير شياء الدين الجزري خوفاً من القتل ثم لحق بالموصل (١) .

وبما قدمنا من أخبار مفصلة يظهر أن نصر الله بن الأثير كان عظيم السياسة ، عتيباً خالياً من الحكمة ، وأنه أسند على عهده ملك الأفضل مملكته واحتجج أموالها وهرب بها إلى الموصل ، ومن هنا يظهر نوع من نفسية الكتاب الذين إذا تولوا أمراً من أمور الدولة وشأناً من شؤونها ، فعلوا الأفضل للفكرة ، وهذا وإن أعظم أسباب انحرف العادل عن ابن أخيه الأفضل هو إقراره لابن الأثير على الوزارة مع شدة رغبة العادل وأكثر الأمراء في عزه عنها ، وانما كان العادل يفتن نصر الله بن الأثير لفساد رأيه وشدة قطعه في مراسلته ، فمن ذلك كتاب كتبه عن الأفضل إلى عمه العادل وفيه يظهر أسلوبه الجليل ، ونصه :

« ندمت على أمر مضى لم يُشر به تصحيح ولم يجمع قواه لظلم »

ربّ وثوق يتود إلى التدم ، وتودّد يدعو إلى التهم ، وقد بدل الخلم على صاحبه ، ويُطعم في جانبه ، ولولا ذلك لما استلطن هودي فُجّجهم ، واستغضف زكي فهُنّهم ، ولا استكرو ما أشكوه إلا إلى حمي ، وصنوا أبي الذي نقره ، نقرى ، وهو الذي قلب فوائقي على وري ، وعظمي التظلم من الأليم ، وأراني شوه النهار بين الاظلام ، ولقد أضاع في إحسانه ، وخالف في قطع رحى

(١) راجع في جميع هذه الأخبار « الروضتين ٢ : ٢٢٨ — ٢٢١ ، والبلوك ١٦ : ١١٦ — ١٣٥ ، والجهوم الزاهية ٦ : ١٢٥ — ٥٥ ، وللكآفة ٨ : ٤٣٥ ، ٤٤١ ، ولم نقل من السكامل لغز القرن بن الأثير لأنه سوى ذكر أخيه نصر الله نصيباً له مع أنه رأس العنة .

سنة الله وكتابه ، وجعل أبيه منه كيوم البعث الذي يتذكر الناس في أسابه واسبابه . وهذا
وقد علم أنني اتخذته أباً أرجو ربه ، ومولى أطيع أمره ، وكنت له ككتابة لا يطيش لها سهم ،
ولا يؤس منها كالم ، ولم أزل ساعياً في تقديم أوده ، وإعلاء كلمته وبه ، وانتهى بي الجهد في
ذلك إلى أبي شافقت بي أبي لواصلته ، وفابحثهم لجسامته ، وشقت في توخي إيتاره عصام ،
وجعلت أذناني إلى أقصاه ، حتى أصبحت من إخالهم عرباً ، وكنت نعيماً فحسرت بكرباً ، هذا
ولم يزل يحسنوني منه النصائح ذوو السرائر ، وأولو الألبار والبصار ، ويقولون : هذا
يخضعك بكبده ، ويملكك حباً لشبكة صيده ، فافتحيت لأقوالهم صماً ، ولا وجدت لها مني موقفاً
ولا وقفاً ، بل مضيت على ما أنا عليه من شدّ يدي ببالاته ، وعقد قلبي على موالاته ، وقلت :
هذا الممد وهذا الساعد ، وهذا العم الذي إذا مضى الوالد فهو التوالد ، وقد بدأت به بالإحسان
الذي أظن أنه أهله ، وليس جزاؤه عند الأحرار مثله ، ولم أظن أنه خير بولديه ، ونعيب لي
أشرك عواذيه ، فشدت ما بينة ذمة الرحم خلفه ظهرياً ، وأخذت العهد الذي في عنقه شيئاً قريباً ،
وانقلب ما كان يظهره من طيب الأقوال ، إلى ما كان يضره من خبيث الأفعال ، فقلت منه
ما لمي يحير أم عامر ، وكافأني مكافأة التماسح لطائر ، وأنا راج أن يقال له إسماني الذي كفره
وما شكره ، ونسبه متعمداً وما ذكره ، قلن الاحسان جنوداً تري في غير سهام ،
وتقاتل في كل معترك بحسام ، وتؤيد بالتمصر في كل مقام ، ومن شأنها أنها تقاتل ولا يشمر
بضالها ، وتسري فتصول بين الطامة وآمالها ، فكنت كنت من يد قبضت على سيفها ، ودعت إلى
حيفها ، وما أمسكت يد جود ، وعنان جحود ، إلا غدا صاحبها عرباً ، ولم يجد له من دون
الله نبيماً ، فلبني له أن يراجع نظره فيها أنه ، وأن يجنب قول موسى لقائه ، ولا يكن ممن اطمأن
إلى مسألة زمانه ، وأراد أمر سلطانه ، فلها الألام التي ما سالت الاطرب ، ولا واصلت
إلا جانب ، ولا تأتي هومها إلا من جهة أفراسها ، كما لا تأتي غلة لبيلها إلا من مطلع صباحها ،
والعالمات أجهزت قديراً ، وزعمت سريراً ، وأذهبت نعيماً وملسكاً كبيراً ، وعاداً ونمود وأصحاب
الرس وقروناً بين ذلك كثيراً ، قلن مكان العهد بولاء أنساء الاعتبار ، وأوجب له

الافتقار فليظن الى ما رآه عبداً ، وكان له سلطاناً ، وهو أخوه الذي خلقت في الآفاق ذؤابة
 علمه ، واستجابات الدول لآمر سيفه وقده ، وكان أثبت منه ملكاً ، وأوسع بلاداً ، وأكثر
 أموالاً وأولاداً ، قشت الأيام على دولته مددت آثارها ، واخذت أنبارها ، هذا ولم يزل يجبل
 قلوب الناس على الحسنى ، ويفرس فيها ما يرجو منه طيب الجنى ، وقد رأيت ما فعلوه ببنيه
 وما بالهد من قدمه ، وما بالقوم عن ذلك الاحسان عى ولا سمع ، فكيف ترجو أنت مع الاساءة
 أن يستمسكوا بسبكك ، أو يحسنوا الخلافة منك في قبلك ، هيباتك أما في النفس الثالثة ،
 ودواعي الهوى الثالثة ، وأنا أعلمك أن تكون من نول قطع رحه ، وخبر ذمعه ، فإن كل
 دنيا ستصرم ، وكل من حكم عليه ظلماً سيحتسب . « والذين أصابهم البني هم يتصرفون » .
 وقد بلغني أنه يتوعدني بذكره ، ويوقد على أحناء صدره ، وأنه نال على الله ليأخذني على يدي ،
 وليبلسن بوي يدي ، وبوشك أنه أخذ من الله موثقاً بالخلود ، وتابته الاقدار على اقتدار
 الجلود ، ومع اليوم غد ، وما من يد إلا والله فوقها يد ، وكفى في هذه الأرض من باغ
 ففوجي ، بالتدفع والتدمير ، وحالت الأيام بينه وبين ما يقدّر من القادر « وكأن من قرية
 أملت لها وهي طاللة ثم أخفتها وإلى الصبر » والى هزني مشه هذه النبوة التي حاثت لها
 الاحلام ، وزالت فيها الاقدام ، فاحف لها الآن جبل ، ولا تعرّكت فيها بحولي ولا بجبل ،
 لكنني قد مددت الجبل معه الى آخره ، وارتقت ما نصير اليه عقب مصابره ، وأنا أدعوه الى
 كلمة سواء ، بيني وبينه أن يبني أحدنا على صاحبه ، ولا يذهب غير مفاهيمه .

فان تدعي للشر أسرع وإن نهب يصلحي قد أبقيت للصلح موضعاً

ويبر علي أن أعقد شجرة أنا من أصلها ، أو أقفر داراً أنا من أهلها ، فأكون في ذلك
 كمن فدى بجمجمته الدامية عن يده الرامية ، ولولا ذلك لآثرتها فتنه تخشى مراكبها ، وتحمّر
 غواربها ، وتقيح عواقبها ، وتكون دخلاً يفتى الناس منه عذاب اليم ، ولا يتجو منه بر ولا أئيم ،
 ولا بري ، ولا سقيم ، والكنني وضعت له جنبي ، وكففت عنه غربي ، وفارقت الاحداث وطلقتها
 وزمت الدعة وتعلقها ، فلا يبعثني على مراجعة الحال الطلقة ، ولا يحملني بعد سبيل الطساعة

على السبل الشرفة ، فليدفع أبيض المضطر أن يركب كل محذور محذور ، ويستخلص حقّه بالحق والزور ، ويدفع ظلامته بما وجد من السبل وهو محذور ، وإذا أخرج المظلم خرج من شيعه ، وانتصبت النار من وارق تسليكه ، فلا يظن أن قد حي إباريه ، ولا ليلي لساويه ، وقد طالبا لي مزي فوجد نقاداً في الأسداد ، طلاماً للإنجاد ، فما قدح إلا أسرج ، ولا كوى ^(١) إلا أنضج ، ولا جهز بعشاً من دعوته إلا غنيت آراءه عن جنود شهده ، أو عصفت سيوف من رؤوس ركده ، وذلك الغزم باق لم ين ولم يهن ، ومنى استطار ناره ثلاث الأقطار ، وسقت الحفار ، وقلبت القلوب والأبصار ، والتجربة تصحك ^(٢) أن توقف شراً قد استدام مكانه ومثامه ، وكره الله والناس أن تستعاد أيامه . فإن ذلك السيف في يد القاتل ، وربما زاد الأجل على ما تقدم من العاجل والسلام ^(٣) .

ومثل هذا الكتاب اللآلئ من السباب ، المحشو بزخرف القول ألب نصر الله بن الأثير الناس على تلك الأفضل وخصوصاً عنه ، فإن مثل هذا الكلام لا يخاطب به رجل كان المضد الأيمن للدولة الأيوبية والسيف الحسام صلاح الدين الأيوبي ، الذي خاض الحروب وكابد الشكروب في المعارك الإسلامية والوثائق الصليبية ، حتى شاب فيها ، وليست الأعمال تسطير السطور ، ولا تهولاً بأمانى التروير كما في هذا الكتاب .

أجل حرب نصر الله بن الأثير بالأموال التي احتجتها من مملكة الأفضل إلى الوصل ، ولما توصل الأفضل إلى الأتابكية أي الوصاية التربوية على الملك النصور محمد ابن العزيز فإن بمصر بعد وفاة العزيز سنة ٥٩٥ يقليل التحق به نصر الله بن الأثير وقيل : بل صار إليه قبل ذلك وصحه إلى مصر . وينقض هذا القول ما ذكره هو في اللئل السائر ٥ ص ١٠٧ من أنه كتب إلى الأفضل سنة ٥٩٥ كتاباً يهنئه فيه بمملكه مصر ، ولحقه شؤمه أيضاً فإن الملك العادل الذي ذله من

(١) ليه قال : وما سوى إلا النج : فاما السكي فيستعمل به : الأحرار .

(٢) أي تنحك .

(٣) الجزء الثاني من رسائل خيام الدين بن الأثير : اللغة العلمية الأمريكية بيروت P ٦٢ T. A

٧٦ . ٨٩٢ . S. ١٧٠ ص ٣٩ — ٤٧ .

فوارص ابن الأثير ما ناله النزع مصر من ذلك الأفضل لاستحكام المداوة بينها ، وعوضه عنها
 بلائاً من بلدان الجزيرة ، ولم يبق يده منها إلا حبيبات^(١٦) . وكيف جرؤ على كتب هذا الكتاب
 من كان يستمر إلى عمه بتل قوله في كتاب آخر يستعطفه ويتصل إليه : « من شعبة الأعداء أن
 تذهب ببعائر ذوي الأبواب ، وتثل لهم الخلفاء في مثال الدواب ، وتولوا ذلك لما زال الحكيم ،
 واعوج السقيم . والملك تامل اليد السريعة للولوية للسكية المارلية لا زال عرفها مأمولاً ،
 واحسانها عند الله مقبولاً ، وفعلها في السمكات مبتدعاً ، إذا كان فعل الأيدي مفعولاً ،
 ولستفتيت إلى عفوها ، الذي يكفي فيه لفظة الاعتذار ، ولا يتقد بمواظبة الآصار ، ولو عرفنيته
 بادياً لقرع له سنّ الندامة ، وعاد على نفسه باللعنة ، ولما كان محبباً أن يكون ملبداً ، وأن يكون
 مولانا كريباً ، لكنه حل إمرة الذئب وهو بري من حملها ، وخاف أن تكون هذه كأمواتها
 التي سلفت من قبلها ، والأشهر التشابه يقاس البعض منها على البعض ، والتسوع لا يستطير
 أن يرى بحر جبل على الأرض ، ولم يحترم للملوك الآن جرعة سوى أن فر إلى الاعتصام ،
 وأبقى يده إلى أقوام لم يكونوا له بأقوام ، وإذا ضاق على الزم أقربه كان الأبعد له من ذوي
 الأرحام ، وليس بأول من ذهب هذا الذهب ، ولا بأول من حل نفسه على ركوب هذا المركب ،
 ولئن قال بعض الناس إنه مجل في اعتصامه وقراره وأنه لو صبر لحده مقبة اصطباره فهذا قول من
 لم يعرف حال الملوك فيقيم له عذراً ، ولا اجلي بما اجلي به من فوارص مولانا صرة بعد أخرى ،
 ولقد تكثر عليه هذه الأقوال المؤنة حتى ملأت طرفه كعجل السباد ، وجده شوك القتاد ،
 وأصبح وهو يرى أنه زلق في خطيئته زلقاً ، وغص بنومه من أجعلها شرقاً ، ويدت له سوائه
 حتى ملق يخفض عليها ورثاً ، ومع هذا فانه واثق أن حلم مولانا لا يؤق من الزلل ، وأن حصاة
 الذئب لا تحف بوزن ذلك الجبل ، وها هو قسود جاء نازماً وللتنازع العتي ، وعاد مستشفعاً
 ولا شفيحاً أكرم من القرب^(١٧) ... »

(١٦) مدينة كانت على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم أي تركية الحديثة غربي الفرات وقفاً على ما
 ذكر منها يسكنها الأرمن والبابوت : ووالسكنها في هذا الزمان ذلك الأفضل على أن ذلك المصنف يوسف
 ابن أيوب صلاح الدين . -
 (١٧) مثل القادر ص ١٧ : شعبة للشعبة البنية بصير سنة ١٣١٩ .

وخرج الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين من مصر ولم يخرج نصر الله بن الأمير في خدمته لأنه خاف على نفسه من جماعة كانوا يريدون القتل به ، فخرج منها مستترا . وله في كيفية خروجه مستترا رسالة طويلة شرح فيها حاله وهي في ديوان رسائله ، وقاب عن خدمته الأفضل برهة قصيرة ولما استقر الأفضل في سمسامة عاد نصر الله إلى خدمته وأقام عنده مدة ثم فرقه في ذي القعدة سنة ٦٠٧ . واتصل بخدمته أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب فلم يطل مقامه عنده ولا انتظم أمره ، وخرج من حلب مغاضبا وعاد إلى بلده للوصول فلم تستقم حاله فيها ، فذهب إلى إربل فدخلها في شهر ربيع الأول سنة ٦١١ . فلم يجد فيها منى ، فسافر إلى سنجار ولم يجد بها قرارا ثم عاد إلى الوصول وصمم الإقامة فيها وصار كاتب الانشاء ، لكنهم القاهر عز الدين مسعود الثاني وابنه ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر عز الدين مسعود الثاني بن نور الدين أرسلان شاه وأتابكهم يومئذ بدر الدين لؤلؤ النوري وذلك في سنة ٦١٨ . قال ابن خلكان : « ولقد ترددت من إربل إلى الوصول أكثر من عشر مرات ونصر الله بن الأمير مقیم بها وكنت أود الاجتناع به ، لأخذ عنه شيئا لما كان بينه وبين والده - رحمه الله تعالى - من اللوعة فلم يفت لي ذلك ، ثم فرقت بلاد الشرق وانتقلت إلى الشام وأقيمت بمقدار عشر سنين ثم انتقلت إلى الديار المصرية وهو في قيد الحياة ، ثم بلغت بعد ذلك خبر وفاته وأنا بالقاهرة ... وتوفي في إحدى الجاديين سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ببغداد وقد توجه إليها رسولاً من جهة صاحب الوصول ، وصلى عليه من القديس بجامع القصر ^(١) ودفن بتقارب فريش ^(٢) في مشهد موسى ابن جعفر - سلام الله عليها - فقال أبو عبد الله محمد بن التتار البغدادي في تاريخ بغداد : توفي نصر الله بن الأمير يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة . وهو أخير لأنه صاحب هذا الفن وصكان عندهم » . ونقل القول الثاني جمال الدين محمد بن علي

(١) من بابله جامع سوق الفراء الجديد للبيد أيام الحسك الثاني بالعراق وكان جامع القصر يسمى أيضا « جامع الخليفة » ثم سمي في العهد الثاني « جامع المنشاء » وكان يعلى فيه على جائزة كل كتيب من أرباب الدولة والعداء والقتلاء والفتناء ، وهو نصر بن عيسى القزويني ، وسعد الأمير أو الأجازة من ديوان الخلافة .
(٢) أي السكاطية الحالية .

للعروف يابن الصابوني في كتابه المؤلف في الاسباب للعروف بتكلمة إكمال السكال وقد قدمنا قلاً منه .

وقال مؤرخ آخر « دفن في سجن مشهد موسى بن جعفر - عليه السلام ^(١) - » . وجاء في ذيل الروشتين لأبي شامة أنه « توفي بالمورقة من بغداد وهو مرسل إليها » هكذا جاء الاسم في نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٥٨٥٢ ورقة ١٨٦ والنسخة المطبوعة على يد عزت المطار الحسيني وهي مشوهة « ص ١٦٩ » ولعل الأصل « الزرقعة » وكانت على درجة فوق بغداد . وقد جاء في النكت السائر كتب المؤلفه كتبها من الملك الأفضل لغيد في تعيين مواضع من سيرته السياسية ففي « ص ٤٦ » يقول : « ومن ذلك ما كتبه من الملك الأفضل علي بن يوسف إلى الميوان العزيز النبوي ببغداد ... »

وفي « ص ٤٧ » منه يقول : « ومن ذلك ما كتبه عنه إل محه الملك العادل أبي بكر بن أوب من كتاب يتضمن استعطافه والتوصل إليه . » وقد نقلناه من قبل ، وقال « ص ٢٦٦ » : « وأما ما أتيت فيه بالحسن من الماني وأمكنه غير عتزع فن ذلك مطلع كتاب كتبه من الملك نور الدين أرسلان بن مسعود صاحب الوصل إلى الملك الأفضل علي بن يوسف يتضمن تعزيته وتهنئته ، أما التعزية فهو لغة أخيه الملك العزيز عثمان صاحب مصر ، وأما التهنئة فهو لغة الملك من بعده ... »

أوصاف المؤرخين والمؤرخاء

قال جمال الدين أبو حامد محمد بن علي للعروف يابن الصابوني في الاستعدادك على مؤلف إكمال السكال : « وذكر في باب الأخير جماعة منهم الأخوان القاضيان أبو السعادات المبارك وأبو الحسن علي أبنا محمد بن عبد الكريم الجزري وأنقل ذكر أخيهما الوزير الفاضل أبي الفتح نصرالله فإنه كان فريداً دهره ، ووجبه عصره ، في صناعة الكتابة والانشاء وله التصانيف البديعة

(١) التاريخ الذي سميته « المواقف الخامسة » ص ١٣٦ .

والرسائل الصنيعة ، ختم به هذا الشأن ، وسار ذكره في جميع الاقطار والبلدان ... وأجاز لي
مسموعة ومشورة ومنظومة ^(١) » .

وقال ياقوت الطوسي في « جزيرة ابن عمر » : « وقد قلنا قوله آنفاً من « معجم البلدان » :
« وينو الأثير العلاء والأدياء وهم مجسدة الدين المبارك وشيأه الذين نصر الله وعز الدين
أبو الحسن علي ... كل منهم إمام ، مات بعد الدين والآخرون حيوان في سنة ٦٢٦ هـ » .

وقال زكي الدين النذري : « وفي إحدى الجاديين توفي القاضي ^(٢) الأجل الفاضل أبو
الفتح نصر الله بن محمد ... للتموت بالشياء المعروف بابن الأثير ببغداد وله تصانيف مشهورة في
التعلم والفكر منها للتل السائر في أدب السكاتب والشاعر وغير ذلك ^(٣) ... » .

وقال ابن خلكان : « ولشياء الدين من التصانيف الفالة على غزارة فضله وتحقيق أسيرته
كتشابه الذي سماه (للتل السائر في أدب السكاتب الشاعر » وهو في مجلدين جمع فيه فلوهم
ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره ... وله كل معنى ملبح في الترتيل وكان يعارض
القاضي الفاضل في رسائله فلذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها ، وكان بينها مكانيات ومجاويزات ولم يكن
له في التعلم شيء حسن ^(٤) ... » .

وقال مؤلف كتاب الحوادث الذي وسماه بالحوادث الجادة « ص ١٣٨ » : « كان كاتباً جالاً
فاضلاً مثقفاً في علم الكتابة ، مقننراً على الانشاء ، ورد اليه بغداد مراراً في رسائل من بسند
الدين المؤلف صاحب الوصل ... » .

(١) « تذكرة أكمل السكالك » نسخة الأوقاف بغداد ٨٥٢ الورقة ٧٧ » .

(٢) « اعتماد الصريون أن يتلقوا » « القاضي » على غير النسخة من السكاتب والفقهاء كقاضي الفاضل
ومن ذلك تعليق النذري نصر الله بن الأثير بهذا القالب .

(٣) « تذكرة المؤلفات الفالة » نسخة مكتبة البلدية بالاسكندرية ١٩٨٩ ج ٢ ص ٢٥٥ » .

(٤) « الإختبات » ٢٨٧ : ٢٩١ « طبعة بلاد الشام وعلى أكثر ما في الوثائق تحبب الدين
اليوفي من قبل شركة الرمال ج ١ ص ٦٤ » طبعة حيدر آباد لكهنؤ .

وقال جمال الدين أبو الحسن علي بن الحسن الخوارزمي في تاريخه « المعجم السبوك » :
« كان يارماً في فنون الأدب ، كاتباً بليغاً وصدرًا نبيلاً ، عالماً متقناً في علم الكتابة ، مصدراً
على الانشاء وكتابة الرسائل [رأساً] في المعاني المحترمة واليه انتهى علم الكتابة في زمانه وبه ختم
فن البلاغة وله عدة تصانيف حسنة مفيدة وله رسائل مدونة ^(١) » .

(١) المعجم السبوك « الورقة ١٥٧ » من نسخة دار الكتب المصرية بالقاهرة .

سيرته الأدبية

وبعد ، فقد مرَّ بك ابن الأثير ، عاش في عصر الحروب الصليبية ، عصر الفتن والحروب والقتال وعصر التنازع بين الدول الإسلامية ، ولم يكن الرجل يعمل عن الحيلة الصاحبة ، كان وزيراً مباشراً للسياسة والملك ، متنبلاً من بلد إلى بلد ، ومن أمير إلى أمير ، كتب لصالح الدين بن عمر والشمام ، ووزر لابنه الأفضل بالشام ، والتحق بصاحب حلب غازي ابن صلاح الدين ، والتحق بصاحب الموصل واتصل بأولي الأمر وافداً ورسولاً في بغداد . وحياته قبل أن يتصل بصالح الدين ليست بسفارت خطر ، ولذلك لا شك تجد للورخين يتحدثون عنها حيث يتحدثون عنه ، ولكننا نبدأ بصفاته بصالح الدين ، وقد اتصل به بعد أن مكث أداته ونضج ؛ يقول ابن خلسكان ^(١) وقد ذكرنا قوله من قبل : « ولما مكثت لضيء الدين الأدوات قصد جناب الملك الناصر صلاح الدين ... في شهر ربيع الأول سنة سبع ثمانين وخمسة مائة فوصله القاضي الفاضل بمحمد صلاح الدين في جمادى الآخرة من السنة ... » وإذا ما علمت أنه توفي سنة ٦٣٧ وأنه توفي وافداً إلى بغداد ، وكان قد توجه إليها رسولاً من صاحب ^(٢) الموصل ، إذا ما علمت هذا رأيت أن ابن الأثير قضى خمسين عاماً ، بعد إكمال أدوانه كما يقول ابن خلسكان ، وكانت حركة لاهداً في السياسة والعلم ؛ كان ينتقل في البلدان وافداً على الملوك والأمراء ، وكان على معرفة بلغات عصره على ما يبدو لنا يقول : « وكنت سافرت إلى بلاد الروم في سنة ست مائة ، فلما دخلت مدينة ملطية أخبرني عن خطيبها أن عنده أدباً ، وأنه يقول الشعر ، فقصدت إقامته وألقيته كما

(١) وفیات الأعيان ج ٥ ص ٢٥ طبعة مطبعة الصحافة بصر سنة ١٩٤٩ .

(٢) وفیات الأعيان ج ٥ ص ٣٢ .

(٣) الوصي للروم ص ٧١ - ٧٢ ، طبعة نزهة القلوب سنة ١٢٩٨ .

أخبرت عنه . وعرض عليّ قصيداً من شعره وهي مائة بيت ؛ كل عشرة منها على لغة ، فكان متضمناً خمس لغات : العربية والفارسية والتركية والرومية والأرمنية ، فأجيب على وزن واحد ، وقافية واحدة ، إلا أنه كان في غير اللغة العربية أربع منه في اللغة العربية ، وهذا من أعرب ما شاهدته ... » وتري من هذا أن ابن الأثير كان — لا يفتأ يقصد أهل العلم ، ويتحدث إليهم ، وتري أنه عارف بهذه اللغات معرفة يستطيع أن يفرق فيها بين الجيد والردىء من الشعر ، حتى يرى شعر خطيب ملطية في غير العربية أحسن منه بالعربية ، وتراه في غير ما يمكن من كتبه يشير إلى معرفته باللغات وقراءته فيها ، يقول وهو يتحدث عن الكتابة والتمريض : « في كتابه للثقل السائر » وأعلم^(١) أن هذين التسميين من الكتابة والتمريض ، قد وردا في غير اللغة العربية ، ووجدتها كثيراً في اللغة السريانية ، فإن الإنجيل الذي في أيدي النصارى قد أتى منها بالكثير . ومما وجدته من الكتابة في لغة الفرس أنه كان رجس من أساوره كسرى وخاواده ، فقليل له : إن لك بخلاف إلى أمراكك لمهجرها لذلك ... »

ويقول في موضع آخر من كتابه : وهذا الكتاب على لغة اليونان^(٢) وأول كتاب الفصول لأبقراط في الطب قوله : العمر قصير ، والصناعة طويلة . وربما لا تعجب أن ترى الرجل يعرف هذه اللغات ، لأن عصره عصر اختلاطت فيه الأمم المختلفة والحضارات المختلفة ، وكان يحسن به وهو الوزير ، أن يعرف هذه اللغات التي قد يحتاج إلى أن يفهمها وأن يكتب بها في بعض الأحيان .

ولم يكن ابن الأثير بالرجل الجبان الذي يحسن الكتابة ، ولا يشهد الحروب ؛ كان براغم صلاح الدين ، ويشهد الحرب معه ويدق حلاوة النصر وخيبة الهزيمة ، يعرض للحدث عن هذا في رسالته يقول : « وكنت^(٣) في سنة ثمان وثمانين وخمسة وأربع فلسطين في الجيش الذي كان قبالة العدو الكافر من الفرنج ، معهم الله ، وتقاتل الفريقان على مدينة يافا ، وكان إلى

(١) الثقل السائر ج ٢ ص ٢١٥ .

(٢) الثقل السائر ج ٢ ص ٢٨٦ .

(٣) الثقل السائر ج ٦ ص ٤٥٥ .

جاني ثلاثة فرسان من المسلمين ، فماتوا على الحلة الى نحو العدو ، فلما علموا صدق منهم اثنان وتسلطاً واحد ... » وراه في غير مامونع من كتيبه ورسائله يفيض في وصف الحرب وآلاتها ، ويتحدث عن القتال فيقول ^(١) :

« وسبق ألم الموت ألم الجراح ، ونفذت غير حقبة لمرعها أسنة الزمان ، وحصل القوم في القبضة ، ودموا عني النهضة ، وجيء بالأسرى مقرنين بالأسناد ، موثقين أن رؤوسهم عواري عن تلك الأجساد ، ولو استطاع رأس أحدهم أن يشكر عنقه لأنكره ، ولا يؤد ... وهو المظلم - أن يقال ما أعظمه بل يقال : ما أحقره ، وتصرفت أيدي المسلمين في القتل والنهب ، وكان لصيف رقاب والمسي رقاب ... » .

وقد يعمد الى وصف بعض آلات الحرب ويقول في التحقيق ^(٢) « ... ونصب للجنيق ، لجثم بين يدي السور مناسباً ، وبسط كفه اليه موائياً ، ثم تولى عقوبته بصداء التي فتكت بأحجاره ، واذا عصي عليها بلد أخذت في تأديب أسواره ، فما كان الا أن استمرت عقوبتها عليه ، حتى صار قائمة حصيداً ، وعاصيه مستقيداً ... » .

هذه الحياة الصاخبة التي تلب فيها ابن الاثير هيأت له مادة الوصف ، ومادة الصكابة الإنشائية ، ويبدو لنا أن رسائله الكثيرة التي لم تنشر بعد ستكون سجلاً حافلاً بحياة الحرب وحياة العلم والممارسة في عصره ، ولعلك ترى أن هذه الواقف ، أعني مواعظ الحروب أولى أن يقال فيها الشعر لأنه أضمن في التعبير عن العواطف من النثر ، وابن الاثير ينظم الشعر ولكن الرجل كاتباً أحسن منه شاعراً ...

ولم يقتصر الرجل على الحياة الصاخبة وحدها يستمد منها مادة حديثة بل تراه يدين النظر في كل ما حوله ، وقد يستخلص الحكمة من أنفه الامور وأسرارها وهو يوصي الاديب أن يقبته الى هنا ، ويلفت اليه ويقول : « اعم أن الكاتب يحتاج الى التثبت بكل فن والنظر في كل علم وإرصاد السمع لجوارات الناس ، فانه لا يعدم من ذلك فائدة فإن كلمة الحكمة مثالة للؤمن ،

(١) اللق المائر ج ١ ص ٨٩ . (٢) اللق المائر ج ١ ص ١٣٩ .

لحيث وجدها فهو أحق بها ، وقد ثبت أحوال الناس في عماراتهم ، قد نددت بألف فوائد كثيرة ، حتى من أنكر وصلاح ، وأعجبى من الاعتناء بالاعتناء ، ومن يجري عظام ، وقد تصدر كلمة المحكمة من الجاهل بكلمتها ، ورب رمية من غير رام ... »

وزاد على هذا حتى رأى لزماً على الكاتب ^(١) ... أن يعلم ما أقوله القادة في الأمم ، وما نقوله للناشطة عند جلوة العروس ، وما أقوله النادي في السوق على الساعة ... »

ومعد إلى الكتب يقرأها ويتدبرها ، وقد مررت بك حديثه عن الأنجيل ، أما القرآن فقد أطلع به ، وابتدع الكثير من موضوعات البيان يتدبره وإلزام النظر فيه حتى عدة آله من آلات التأليف ^(٢) ، وأوصى بحفظه وتوالت دراسة أثراته والمؤوض في بحور عجائبه .

وقال في مقدمة كتابه الجامع الكبير في الحديث عن علم البيان ^(٣) : « لمت في أنساب القرآن الكريم من هذا النحو أشياء طريفة ، ووجدت في مطالعته من هذا النوع نكتاً دقيقة لطيفة ، فرسنا عند ذلك على الأقسام التي ذكرها هؤلاء العلماء وشرحوها ، والأصناف التي يتنوعها في تصانيفهم وأولئها ، فأنفستهم قد غفلوا عنها ، ولم يلبسوا على شيء منها ، وكان ذلك باعثاً لي على تصفح آيات القرآن العزيز ، والكشف عن سره السكون ، فأستخرجت منه حيثما ثلاثين ضرباً من علم البيان ، لم يأت بها أحد من العلماء الأعلام ، وكان ما ظفرت به أصل هذا الفن وعمده ، وخلاصة هذا العلم وزيدته . حيث أحرزت هذه القطيعة ، وحصلت عندي هذه العقيلة أحببت أن أفرد لها كتاباً ، وأفصلها فيه أقساماً وأبواباً ... » وهكذا تراء يتعلق بالقرآن الكريم ، ويشرح بهد ذلك بمقدار ما في تفصيل الدثر على الشعر ويمثل أول أسبابه في هذا التفصيل أن القرآن الكريم ورد نقرأ ^(٤) .

وكذلك قبل في حيث الرسول الكريم وجملة أحد الأدوات التي يلزم الترتيب لصناعة الكتابة ، وحسبك منه ان جعل كتاب الوشي للرقوم مبنياً على مقدمة ^(٥) وثلاثة فصول جعل

(١) الوشي للرقوم ص ٥٥ . (٢) أنظر ص ٧ من هذا الكتاب .

(٣) أنظر ص ٧ من هذا الكتاب . (٤) أنظر ص ٧٣ من هذا الكتاب .

(٥) أنظر ص ٤ من الوشي للرقوم طبعة خزائن القوي سنة ١٢٩٨ هـ .

الفصل الأول في حل الشعر ، وجعل الثاني في حل آيات القرآن ، والثالث في حل الأخبار النبوية .

ولم تقتصر دققته على هذا بل عمد إلى الشعر حتى قال في كتابه الوشي الرقوم ^(١) « وكنت حففت من الاستعار القديمة والحديثة ما لا أحصيه صحفة » ، ثم اختصرت بعد ذلك على شعر الطائيين حبيب بن أوس وآبى عبادة البحتري ، وشعر أبي الطيب الشابي ، شغفت هذه النواوين الثلاثة وكنت أكرر عليها بالمدرس مدة ستين حتى تمسكت من صوغ المعاني ، وصار الإدمان لي خلقاً وطبعاً ، فلا تنزع أبداً الخائض في هذا البحر الذي لا ساحل له إلا بأن تفعل ما فعلته ، وتسلط ما سلسكته » .

ونظرة واحدة إلى مؤلفات ابن الأثير تترك سسمة باعه وحده في شتى صنوف المعرفة الشاملة في عصره . كتب الوشي الرقوم في حل الآيات القرآنية السكرية وحل حديث الرسول الكريم وحل الشعر . وكتب كتاب ^(٢) « المفتاح النشأ في حديقة الإنشا » وقد تحدث به عن صناعة الكتابة ، وله « مؤسس الوحدة » وقد جمع به مختارات من الشعر ونسخة منه محفوظة بخطه كرتلو الأمانة ، و « كتاب الأخبار النبوية » ، يقول عنه ^(٣) « وكنت جردت من الأخبار النبوية كتاباً يقتدل على ثلاثة آلاف خبر ، كلها تدخل في الاستعمال ، وما زلت أواطى على مطالعته مدة تزيد على عشر سنين ، فكنت أنهي مطالعته في كل أسبوع مرة ، حتى دار على ناظري وناظري ما يزيد على خمائة مرة وصار محفوظاً لا يشذ عني منه شيء » . وله كتاب أدعية يقول فيه ^(٤) « وكنت ألقت كتاباً في ذكر أدعية مخصوصة شملت مائة دعاء ، مما روي في الكتب الساطية والأخانيات ... » وله كتاب في « المرققات الشعرية »

(١) انظر ص ٩ - ١٠ من نسخة دار الفنون سنة ١٣١٨ هـ .

(٢) « مصور مدار الكتب للمسيرة » (برقم ٥٠٧٠) والمجلد الأدبية في عصر المروغ الصليبية للكتور أحمد أحمد بدوي مطبعة النهضة مدر ص ٣٣٥ .

(٣) في عصر المروغ الصليبية للكتور أحمد أحمد بدوي ص ٣٩ . ولتكن الشرح ص ١ من ١٦٨ .

(٤) الوشي الرقوم ص ٧٠ .

يشير إليه في كتابه للثل السائر إذ يقول « ... وأعلم أن هذا البيان قد تكلموا في السرقات الشعرية فأكثروا ، وكنت ألفت فيه كتاباً ، وقسمته ثلاثة أقسام : نسخاً ، وساجاً ، ومسحاً^(١) » . وله « مجروح » اختار^(٢) فيه شعر أبي تمام والبحري وديك الجن والثني وهو في مجلد واحد كبير . وله كتاب « الرصع في الأدبيات » وقد طبع في القسطنطينية سنة ١٣٠٤ هـ وطبع في الألبانيا سنة ١٨٩٦ وله « العالي المختارة في صناعة الإنشاء » يقول فيه ابن خلسكان^(٣) إنه نهاية في بابه . وله « البرهان في علم البيان » وجاء في تأريخ آداب اللغة العربية لجرجي^(٤) زيدان أنه غزير في برلين ، وذكر له أيضاً « رسالة في الأزهار » ، وقال إنها محفوظ في^(٥) باريس . وفي كتاب هداية المارفين لاسماعيل باشا البغدادي طبعة استانبول سنة ١٩٥٥ المجلد الثاني ص ٤٩٣ أنه صنف من الكتب « الاستدراكات » . ورسالة في الضاد والفاء ، و « رسالة في أوصاف مصر » وله ديوان « ترسل » في عدة مجلدات .

ولعل أشهر هذه الكتب كتابه للثل السائر ، وهو كتاب شهر به ابن الأثير وأحدث ضجة في حياة الرجل وبعد مجاته وألفت المكتبة في التمتع له والتمتع عليه ، قال صاحب كشف^(٦) الطنون : « وصنف بعضهم كتاباً سماه « الروض الزاهر في محاسن للثل السائر » وصنف عز الدين بن أبي الحديد كتاباً سماه الفلك الدائر على للثل السائر » ، وصنف أبو القاسم محمود بن الحسين الركن السنجاري الشوفي في عام ٦٤٠ هـ كتاباً رد فيه عليه وسماه : « نشر للثل السائر وطني الفلك الدائر » وصنف صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي الشوفي في عام ٧٦٤ كتاباً سماه : « نصرة السائر على للثل السائر » وصنف عبد العزيز بن عيسى كتاباً سماه : « قطع الدابر عن الفلك الدائر ... » ولعلك ترى معنا أن عناوين هذه الكتب وحدها كافية في أن

(١) للثل السائر ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٢) ديوان الأمل ج ٥ ص ٢٨ طبعة مطبعة المعارف بمصر سنة ١٩٢٩ .

(٣) ديوان الأمل ج ٥ ص ٢٧ . (٤) هداية المارفين ج ٢ ص ١٩٣ .

(٥) تأريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٥١ . (٦) كشف الطنون ج ٢ ص ٨٢٦ . وأطرو

(٧) ٢٢٢ - ٢٢٣ بولاق مصر (١٨٧٤) من مخطوطات للثل السائر .

تعلن معركة حامية بين مؤلفيها .

وهكذا ترى هذه الحركة الكبيرة التي أحدثتها هذا الكتاب في علم البيان العربي ، وترى
التأني يتعمقون له ويتعمقون عليه تعصبهم لمذاهب السياسية والدينية .

قلنا : ألّف عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن أبي الحميد هبة الله الدائري الكاتب الشاعر
كثيراً في الرد على نصر الله في النثر السائر سماء « الفلك الدائر على النثر السائر » ، ولما وقف
عليه أخوه موفق الدين أبو المعالي القاسم بن أبي الحميد كتب إلى أخيه المؤلف :

النثر السائر باستيدي سئقت فيه الفلك الدائر
لكن هذا فلك دائر تصير فيه النثر السائر^(١)

ومن البين أن إلهاء الكاتب لذي قرأته على أثر له أدنى كما فعل القاسم بن أبي الحميد
لا يقام له وزن إلا إذا حققه النظر والاعتبار وثبت استحقاق الأثر لذلك الأماز .

وانتقد أن عز الدين بن أبي الحميد تزوج بعد تأليفه « الفلك الدائر على النثر السائر » امرأة
أرملة ، وكان زوجها الأول جندياً وله ابن منها اسمه غازي ويكتب بفلك الدين فقال فيه الشيخ
موفق الدين عبد القاهر بن الفوطي البغدادي الأديب الشاعر :

لقد أنا ما مثلي سائر ألقت فيه فلكاً دائراً
لكن هذا فلك دائر أصبحت فيه مثلاً سائراً^(٢)

وكان عامل القبره مانلاً في تأليف « الفلك الدائر » لألّف نصر الله بن الأثير استهزأ
بالكتاب المرافين ، وانتقد عليهم أقوالاً ، قال ابن أبي الحميد في مقدمته بعد الحمد لله والاشارة
إلى رضي الإنسان عن نفسه وضم محبه يها والصلاة على نبيه وآله وأصحابه .

« وبعد فقد وفتت على كتاب نصر الله^(٣) بن محمد الواسلي المعروف بابن الأثير الجزري »

(١) الويات : ٢ - ٢٨٨ - ٩ - . وثوات الزوات : ١ - ١٩٩ - ٥ - طبعة مطبعة المعادة وفيه
« أصبحت » مكان « صير » .

(٢) نصوص معجم الألفاظ لابن الفوسى : ج ١ ص ٢٩٢ - من نسخة مخطوط جنود المطبعة الأولى .

(٣) والمطروح « ندم ابن » وذلك خطأ وكان المخرج سنة ١٣٠٩ - بحاية حمد الدين زكي وهو رديء
جداً ، يصعب علينا التنبه على مواضع ردائه لخطوه وكثرته .

السمي كتاب « النثر السائر في أدب الكتاب والشاعر » توجد في نسخة المخطوطات والبريد ،
والردود والردول . أما المخطوطات منه فتشاهد وصناعتها ، فإنه لا بأس بذلك إلا في الأقل النادر ،
وأما الردود فيه فخطره وجدته واحتياجه واستقرضه ، فإنه لم يأت في ذلك في الأكثر الأغلب ،
بما بلغت إليه ، ولا بما يعتمد عليه ، لخداي على ليلته ومتافضته ، في هذه النواحي العظيمة
أمر منها إزراءه على الفضل ، وعنه منهم ، ومعه لم يفته عليهم ، فإن في ذلك ما يدعو إلى
التفكير عليهم والانتصار لهم ، ومنها إفراده في الإعجاب بنفسه والتبجح برأيه والتعريف بعرفته
وصناعته ، وهذا عيب قبيح يجب على الإنسان والاجتهاد ، ويوجب الذم من الله والعباد ،
ومنها أنه قد أودع مراراً في كتابه إلى غلب دهره إذ لم يعط على قدر استحقاقه ، فأردنا أن
نذكره أن الرزق مقسوم ، لا يميله الفضل ولا يردده التمس ، ومنها أن جماعة من أكابر الأصول^(١)
قد حسن عليهم في هذا الكتاب جداً ، وتصديروا له حتى فضلوه على أكثر الكتب الصنعة في
هذا الفن وأوصفوا منه نسخاً معدودة إلى مدينة السلام وأشاعوه ، وأدبره كثير من أهلها ،
فاعترض عليه بهذا الكتاب وتقررت به إلى الحزونة الشريفة لتدفع الدولة الامارة السعديّة
— عمر الله أمالي بعزتها أندية الفضل ورأته : وأمال بطول بناء مالكها به العلم وبها .

ولم يكن ابن أبي الحديد بالشعير على نصر الله بن الأثير في « الفلك الدائر على نثر السائر »
بل زاد عليه فقه لإله في شرح نهج البلاغة وقد ابتدأ به سنة ٦٤٤ هـ وآخيه
سنة صفر من سنة ٦٤٩ هـ^(٢) ، ومن ذلك ما ذكره في الكلام على « النادر » قال : « وقال
ابن الأثير في كتابه السمي بالنثر السائر : إن هذا النوع من المقالة غير متفق عليه في لغة العرب
فإنه لما مات قباد أحد ملوك الفرس قال وزيره : حركنا يسكنوه . وفي أول كتاب الفصول
ليقراط : العمر قصير والصناعة طويلة ، وهذا الكتاب على لغة اليونان . قلت : وأي حجة به
إلى هذا التكلف وهل هذه الدعوى من الأمور التي يجوز أن يعتري الشك والاشبهة فيها ليساق

(١) كانت الأصول يومئذ عاصمة الدولة الأتابكية خارجة عن المسكن الذي لم يلبس .

(٢) شرح نهج البلاغة « مج ٤ ص ٥٧٤ » طبعة مصطفى البابي بحصر .

بمحاكاة من غير كلام العرب يحتاج بها » ٢٢ .

وربما كان كتاب « التفات الدائر على اللؤلؤ السائر » أشهر هذه الكتب ولعلك ترى أن ابن الأثير قد أشير بكتابه هنا شهرةً حاثت على شهرته السياسية ، ولقد وُزِرَ لذلك واثم الأمور خمسين سنة ، ومع ذلك فشهرته مؤلفاً بعلوم البلاغة أكثر من شهرته وزيراً أو كاتباً ، ولا عجب فقد صرف همه لهذا العلم ، وقرأ ما كتبه السابقون فيه . يقول في فائحة اللؤلؤ^(٢٣) السائر « وقد ألف الناس قبسه — في علم البيان — كتباً ، وجلبوا ذهباً وفضة ، وما من تأليف إلا قد نسفحت شبيهه وسينده ، وعلمت غته وحجته ... » ثم أعل رأيه فيها قراء مما كتبه الناس وابتدع مسائل في علم البيان لم يسبقه إليها أحد ، حتى قال عن نفسه : « ... وعذاني الله لا يبدع أشياء لم تكن من قبلي مبتدعة » ، ومنهجي درجة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها تاليساً ، وأتاهي متبعة ... » ومع كثرة ما كتب لا تراه يظهر بشي ، نظره باطلانه على علم البيان وإحرازه نصب السبق فيه .

وهذا الكتاب الذي بين يدي التتارى « كتاب الجامع الكبير في صناعة النظم والنثر » قد ألقه ابن الأثير على ما يبدو لنا قبل كتاب اللؤلؤ السائر ، وربما كان أول كتاب يؤلفه في علم البيان ، يقول في مقدمته وقد قلنا أكثر ذلك «^(٢٤) ... لحث في أثناء القرآن الكريم من هذا النحو — أي من موضوعات « علم البيان » — أشياء ، طريفة ، ووجدت في مطالعته من هذا النوع نكتاً دقيقة لطيفة ... لم يأت بها أحد من أولئك الغداة الأحران ، وكان ما ظفرت به أصل هذا الفن ، ومحدثه ، وخلاصة هذا العلم وزيدته ، طرأت أحرزت هذه الفضيلة ، وحصلت فتدي هذه العقيدة ، أحببت أن أفرد لها كتاباً ، وأقصاها فيه أقساماً وأبواباً ، ليسكون مقصوداً على شوارد هذا العلم وغرائبه ، ورمزه الحقة وهمايه ، وليجعل مؤلف الكلام رأس بشاعته ويعلم به مواقع الصواب في صناعته ... » .

واسلوب ابن الأثير هادئ في هذا الكتاب ، يقل عن تقدمه من علماء البيان ويشير

(٢١) ج ١ ص ٢٣ . (٢٢) انظر ص ٣ من هذا الكتاب .

الى مواطن النحل في أكثر الأحيان ، وقد يجادل في الرأي جدالاً هادئاً ، وهذا ما لاراد له في كتاب التل السائر : إذ قلنا نراه يشير الى رأي وهو لا يحاول تخليده والتيل من صاحبه ، وهذا ما ألب عليه الذين تصدوا لتدوين كتابه وتفنيد آرائه كمن الذين أتى الحمد للار ذكره .

وقد تفضل الجمع العلمي العراقي ، فصور هذا الكتاب على نسخة خطية بدار الكتب المصرية سنة ١٩٥٠ ، تسبخت بنقشة الكتبخانة وأضيفت في ٢٤ مارس سنة ١٩٩٧ برقم : ٢٧٠ بلافة و ٣٠٠٦٤ مومية ، وكتب في صدرها « كتاب الجامع الكبير في صناعة النظم من الكلام والنثر » ، تأليف الشيخ الامام العالم العلامة ، لسان الأدب ، وترجمان العرب ، أبي الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزائري ، الشهير بابن الأثير رحمه الله تعالى وعفا عنه ، وكان عدد أوراقها ١٦٥ ورقة . وتفضل الجمع العلمي العراقي فهدى إلينا بنسختها ، وكان خطها واضحاً لم تنسب في قراءته ، ولكنها كانت — مع منوعها في الكتابة — كثيرة التصحيف ، وقد أجهدا أنفسنا في الرجوع الى كتب البلافة وكان أجهداً نفعاً وأكثرها معونة لنا ، كتاب التل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، المؤلف نفسه ، وقد رأينا في غير ما موطن يذكر هناك ما ذكره هنا ، وقد يفيض في أحد الكتابين على حين يختصر ويحذف في الكتاب الآخر ، حتى يبدو للقارى ، في كثير من الأحيان أن أحد الكتابين كان بمثابة مسودة للكتاب الآخر ، وكنا نوازن بين ما ورد هنا وورد في التل السائر ، وقد رأينا كثيراً من الأخطاء جاءت في التل السائر وكان من الممكن أن تصاحب الرجوع الى هذا المخطوط ، وقد نهينا الى بعض ذلك في حواشي هذا الكتاب .

وقد أجبنا شخصية ابن الأثير الأدبية بعد إنفاقنا هذه اللة الطويلة في كتابه هذا ، ورأينا أن نوالي تحقيق آثاره ، فطلبنا الى الجمع العلمي العراقي أن يصور رسائل ابن الأثير الموقوفة في جزئين من معهد إحياء المخطوطات البرية في الادارة الثقافية في الجامعة العربية ، ومن مكتبة الجامعة الأميركية ببيروت ، ومن غيرها ورجونا أن يهد إلينا بنشر رسائله هذه ، وعسانا نوفق لهذا ، والله للوفيق لطير .